بيت رحيم

بيت رحيم (روايات قصيرة)

د. إبراهيم غبيش

الطبعة العربيّة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: م. سجود العناسوة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-482-5

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(1438/ 3/ 2022)

306

الغبيش، إبراهيم محمد خليل

بيت رحيم/ إبراهيم محمد خليل الغبيش. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(294) ص

ر. إ: 1438/ 3/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

د. إبراهيم غبيش

بيت رحيم

روايات قصيرة

الـــربيـــع الذي يلي

غيمة..

يا لجدي الأكبر؛ عبد الله. ذلك الحلم البعيد الذي راود أبي في منامه، طفولته، مراهقته، وحتى شبابه. درس أبي التاريخ العربي، تاريخ بلاد الشام والحكم العربي في الأندلس.

وُلد أبي وترعرع وعاش في المكسيك، كان حلمه البعيد يأخذه إلى الأندلس تارة، وتارة إلى بلاد الشام.

- رأيتُ جدي الأكبر، جدي العربي عبد الله.

قالها لأمه فقط. قبّلته ومسدت شعره وغمرته بابتسامة لا تعني شيئًا.

- رأيتُ جدي الأكبر عبد الله.

قالها لأبيه ذات صباح.

هدهد الأب ابنه، ولم يُعلّق.

في ريعان شبابه، حضر عبد الله الأكبر إلى حلمه، وغمره بعناق.

لم يقل لأحد.

في الجامعة، درس سياسة واقتصاد، ودرس التاريخ، تاريخ بلاد الشام والأندلس.

وحتى ساعة متأخرة من المساء بدأ دراسة اللغة العربية، أتقنها، عدا النطق العربي للحروف.

أهّله ذلك للالتحاق بالسلك الدبلوماسي للمكسيك، موظفًا صغيرًا في سفارة المكسيك في دمشق.

أتقن اللغة العربية هناك، نطق الحروف والكلمات والجُمل كأنه عربي.

عربي، من قال أنا عربي، حلمي قال ذلك.

في دمشق، أليخاندرو (ومعناه المُدافع) تحوّل في المحكمة إلى عبد الله، كان سعيدًا بذلك.

انتقل إلى سفارة المكسيك في عمّان، وظيفة متقدمة، ووضع مادي مريح.

تعّرف في إحدى حفلات السفارة على طبيبة الأطفال، الدكتورة هالة نصري.

فتاة ممتلئة، وجه دائري وشعر يميل للحمرة، هادئة.

هالة نصري مسيحية من الناصرة، درست الطب في هافانا-كوبا، وتخصصت في طب الأطفال. لها عيادة خاصة ناجحة في عمّان، فترة واحدة من العاشرة صباحًا حتى الثالثة مساءً. لها ثلاثة إخوة مهاجرون إلى أمريكا اللاتينية، غواتيمالا.

كانت أمي لاحقًا، د. هالة نصري في أوائل الثلاثين من عمرها، وتزوجا.

جاء إلى الدنيا، طفل يحمل كل سيماء وجه أمه، الشعر المائل للحمرة، متوسط القامة، عيون أمه البنية.

وجهي المتغضن وعظم خديّ البارزين كانا ميراثي من أبي.

- فرناندو، الجميل فرناندو.

قال أبي.

- فرناندو.. ذكي. جميل، أين اسمه العربي يا عبد الله؟

قالت أمي.

- آه، صحيح. كأني أفكر بالمكسيكية. قولي أنت يا هالة.

قال أبي.

- هو زياد، زياد، حبيبي زياد.

لم تتوقع أمي ذلك، نهض أبي وأحضر جيتارًا قديمًا وعزف، غنى بصوت أجش:

- زياد.. زياد.. فيرناندو زياد..

ذات ربيع..

في دمشق، شفي أبي عبد الله من مرضين كانا يلازمانه في المكسيك، التهاب مفاصل مزمن، وأكزيما جلدية غريبة.

- هواء الشام، فقط هواء الشام هو ما شفاني.

كان يعتقد بهذا..

ينطلق صباحًا إلى السفارة ويعود مساءً إلى البيت. أمي كانت ترسلني في حافلة صغيرة، لونها أحمر إلى حضانة وروضة الأندلس صباحًا، وتأتي لتأخذني بسيارتها الفولكس فاجن الحمراء إلى البيت، تعد الطعام وتغني لي. دائمًا تُغنّي لي.

اشتريا بيتًا صغيرًا من حجر، حديقة صغيرة وكراجًا.

ما علق في ذاكرتي شيئان، حبهما لصنع الطعام، والغناء والموسيقى.

ذات ربيع، أخبرها أنه سيتقاعد مبكرًا، وأنه يرغب في تحويل كراج البيت إلى مطعم صغير. لا أدري، لم تتردد أمي في الموافقة.

أخذا ترخيصًا بذلك، معجنات بأنواعها المختلفة، شامية ومكسيكية. صنف وحيد آخر، حلوى، كرواسان.

يُعِدُّ أبي وأمي كل شيء مساءً وأول الليل، وفي الصباح، الساعة العاشرة وحتى الثانية عشر ظهرًا، يقدّمان الحلوى والمعجنات، ومساءً من الرابعة حتى السادسة.

- نسميه أميجو زياد.

قال أبي وهو يرنو لي.

- مرة أخرى يا عبد الله العربي؟

قالت أمي ساخرة.

- آه.. صحيح. سميه أنت يا هالة.

ابتسمت أمي:

- مخبازة، مخبازة زياد.

وقد كان.

ربيع- خريف مشمس..

الحياة تتسع لكل شيء، الموت لا.

لا أتذكر من قال ذلك، لكني أشعر أن روح أبي وروح أمي كانتا تشيان بذلك دائمًا، كذلك روحي. الحياة تتَّسع لكل شيء. بتُّ وحيدًا في هذا البيت.

أنا، البيت، المخبازة، وعربة فولكس فاجن قديمة، حمراء اللون.

رحل أبي، احتشاء في عضلة القلب، جلطة قلبية، وتبعته أمي، سرطان ثدي متقدم.

أصدقاء مدرسة، وأصدقاء جامعة، وزبائن المخبازة، الحياة تمرّ، انبثاق ربيع من ربيع.

أُعدّ مساءً عجين المعجنات وما أضعه في داخلها. طقوسي الليلية، شراب أبي المفضَّل، وعشاء أمي الدافئ، نوم حتى الصباح، أُشعل الفرن وأبدأ بخبز الحلوى، كرواسان، والمعجنات المختلفة لزبائن المخبازة، تواصي أو غير ذلك.

من العاشرة صباحًا، وحتى الثانية عشرة، أقفل المخبازة، غداء وقيلولة، ثم الوجبة الثانية من الرابعة حتى السادسة مساءً. أتقنت ذلك العمل، روح أبي وأمي، إضافات مني أيضًا.

تخرجت في الجامعة، آداب، لغتان: الإنجليزية والألمانية. وكنت قد أتقنت لغة أبي وأمي الإسبانية، طبعًا إلى جانب العربية.

الحياة تتسع لكل شيء.

أخذني ذلك الربيعُ مساءً، لم أتجاوز الثالثة والعشرين، سجلتُ في ذلك المعهد لأدرس اللغة الفرنسية، كنتُ مولعًا باللغات.

بُعيد السادسة مساءً بقليل أكون في المعهد لأعود في الثامنة مساءً إلى بيتي.

شبان وشابات صغار معي، لم ألحظ أحدًا يكبرني، مدخل للغة الفرنسية في البداية، ثم مستوى واحد، ونتدرج مستوى اثنين ثم ثلاثة وهكذا..

حسبتُ المُدرسة في البداية أنها فرنسية؛ إتقانها للغة ومخارج الحروف. كانت عربية، لطيفة جذابة ورقيقة؛ شعر قصير أسود فاحم، ووجه صغير ممتلئ، لم تكن طويلة.

لا أنكر انجذابي نحوها، تبدو في مثل عمري، سريعة الحركة لكنها تعطي انطباعًا بالهدوء.

ترددت كثيرًا قبل أن أقرع باب مكتبها في المعهد، سألَت إن كنتُ أريد استيضاحًا، سألتُها عن إمكانية تسريعي في دراسة اللغة.

- هل أنا بطيئة؟

قالت وابتسامة حائرة على شفتيها.

- لا، قطعًا لا. لكني أود أن أقطع شوطًا أطول.

قلتُ معتذرًا.

- ستسافر إلى فرنسا للدراسة، إذن.

قالت ببطء.

أصابتني حيرة: لا، لا أنوي السفر لفرنسا ولا للدراسة.

ثم ببطء: أنا أحب اللغات.

طلبت مني أن أجلس.

- ها، تحب اللغات، ماذا تتقن غير العربية؟

أصابني خجل وتدفق دم في وجنتيّ:

- أنا.. أنا إلى جانب العربية، أتقن الإسبانية، الإنجليزية، الألمانية، والآن الفرنسية.

علت الدهشة محياها:

- أنت عربي.. ها.

أجبت بأدب: القصة طويلة، نعم عربي، أمي عربية، من الناصرة، وأبي مكسيكي. لكن، ماذا أقول؟

ضحكَت:

- آسفة، هذه حكاية، هل تعلم! ما اسمك؟

- أنا.. أنا زياد، اسمي زياد.

- بي شغف يا زياد أن أسمع منك الحكاية.

غمرتني فرحة داخلية:

- مس..

قاطعتني:

- مسز هنادي، اسمي هنادي.

- السيدة هنادي، تحبين الكرواسان والمعجنات.

وقفَت تود المغادرة:

- يعني، نعم..

قلت بهدوء وتردد:

- لي مخبازة، مكان لبيع الكرواسان والمعجنات، ما رأيك؟ الأحد عطلة، تأتين صباحًا.

علت وجهها الدهشة:

- أعطني العنوان.

ناولتها بطاقتي، غادرَت، وغادرتُ إلى بيتي.

لا أدري، ربيع يراودني، وأنا أستسلم.

شوبان، حديث موسيقى..

الأيام الثلاثة التي مرت كانت طويلة، أنتظر الشمس صباحًا وأودّعها مساءً.

صباح الأحد، كنتُ في المخبازة، كل شيء كان ساخنًا وطازجًا، شمس ربيعية تملأ الكون.

لم أكن متيقنًا أنها ستأتي، زبائن يجيؤون ويذهبون، تجاوزت الساعة الحادية عشرة والنصف، كدتُ أن أفقد الأمل. توقفت سيارة بيضاء صغيرة أمام المخبازة. نزلت السيدة، إذن السيدة هنادي، نظارة سوداء كبيرة تخفي نصف وجهها الصغير، فانلة صفراء، وبنطال جينز أزرق.

- أهلًا، أهلًا سيدة هنادي.

قلتُ مرحّبًا وأنا أمد يدي. لامست يدًا رقيقة وناعمة.

- توقعت أن أتوه، لكن..

- أهلًا.

دلفنا إلى الداخل، أحضرت لها قطعة كرواسان طازجة ودافئة في طبق فضي.

- هذه ضيافة.

جلسَت على مقعد صغير.

- أُجرّب، لم لا؟

كانت تتناول قطعة الكرواسان ببطء، مدّت أذنها:

- اسمع.. موسيقى خافتة.
- نعم، في الزاوية، شوبان، شاعر الموسيقى.

نظرت إليَّ بودّ:

- آه.. آه.. جميل.

أنهت جزءًا كبيرًا من قطعة الحلوى.

- يبدو أنني سأتردد على المخبازة طويلًا.

قدمت لها عيّنات من المعجنات.

قالت بحزم:

- أوه، لا.. لا أريد عينات، سآخذ ما يكفي لثلاثة أشخاص، وسأدفع نقدًا.

قلت باستغراب:

- أنتِ ضيفة.

قاطعت:

- لا، يبدو أننا سنكون أصدقاء.

ثم تابعت بهدوء: هذا رغم فارق العمر طبعًا، ربما أنت أكبر قليلًا من ابنتي سلام.

أخبرتُها أنني في الثالثة والعشرين من عمري.

- ابنتي «سلام» في الثامنة عشرة، و«فارس» في السادسة عشرة، وأنا...

ضحِكَت: تجاوزتُ الأربعين بأشهر قليلة، لقد تزوجت مبكرًا.

أخذت مشترياتها من المعجنات، مدت يدها مودعة. حينما لامست يدي مسّني سِحرٌ.

ترددَت كثيرًا على المخبازة، بل وأحضرت مرة «سلام» و«فارس»، وترددتُ كثيرًا على مكتبها.

حكيت لها حكاية أبي أليخاندرو، وأحلامه، وجده الأكبر عبد الله، دراسته وعمله في الشام، ولقاءه مع أمي الناصرية، قصة حبه وزواجه. توطدت علاقتنا، ذات مساء أحضرت لها هدية، دلفتُ إلى مكتبها، رحبت بي كالعادة، كنتُ أعرف يوم ميلادها، قدمتُ هدية صغيرة، لم ترفض.

- ما هي هديتك؟ ولماذا؟
- أولًا عيد ميلادك، والهدية بسيطة.

طلبتُ أن تفض ورق الهدية الملون.

أسطوانة قديمة، فالس الربيع، شوبان.

قلت: هذه لأمي، ذكرى منها. هي لكِ، لك يا هنادي..

كان الباب مغلقًا، نهضت من خلف مكتبها، تلمست الأسطوانة بأناملها، تقدمت نحوي، أغمضت عينيها، ضمتني وقبّلتني. دمعتان صغيرتان انسابتا من عينيها. مسّني السحر.

ينبوع..

انفجرت ينابيع كثيرة، شقت الصخور، جرت وديان وحفرت في التربة، جرفت حجارة صغيرة، الشمس تضيء ودفؤها يملأ الكون.

تواعدنا أكثر من مرة، أنا وهنادي، لقاءات دافئة، رأت داخلي كله، ورأيت داخلها. قصة حبها الفاشلة في الجامعة، زواجها من ياسين، مغترب في كندا ويكبرها بخمسة عشر عامًا، أنجبت منه سلام ثم فارس.

عاشا في إقليم كوبيك بكندا، إقليم يتكلم الفرنسية. أخذت الجنسية الكندية، عاشت حياة صعبة مع رجل شرقي الطراز، صعب المراس، وانفصلا في النهاية. عادت إلى عمّان، اشترت شقة صغيرة، وعملت مُدرسة للفرنسية في أكثر من مكان.

اهتمت بأدق التفاصيل في حياتي، ملابسي، طعامي، عطري، هذه الهنادي.

استسلمتُ أنا، واستسلمت هي، عشق، لا بداية ولا نهاية.

نسيتُ أن أقول إنني قطعت أكثر من دلف في اللغة الفرنسية، لغة، ونطق حروف، مُدرستي هنادي طبعًا.

- لا تدري كم أحبك، أيها الذكي (فرناندو).

ابتسمَت، وابتسمتُ أنا.

- أقصد زياد.

قبل أن تعبر غيمة الربيع إلى صيف.

- نتزوج، هنادي، نتزوج..

علت وجهها حمرة كأنها مراهقة صغيرة:

- نتزوج، نتزوج.. و.. وفارق العمر، وأبنائي....

وضعت يدي على فمها، ثم تابعت:

- نتزوج. هنادي، أنت تعملين، وأنا أكسب جيدًا، لي بيت، غرفة لنا، وغرفة لسلام والأخرى لفارس، هنادي أنا لا أعرض عليك الزواج، أنا لا يمكنني إلا أن نكون معًا.

ضمتني كثيرًا، ذابت وبكت.

وعدتني أنها ستكلم الأبناء وتأخذ موافقتهم وتعرفهم جديًّا عليّ. وافقتُ وانتظرتُ.

صيف على الأبواب..

انتابتني أحلام يقظة، تحدثت إلى أبي، وتحدثت أكثر إلى أمي هالة، أخبرتها كل شيء عن هنادي، خرجت من صورة الإطار وقبّلتني، ضمتني. خرج أبي وعزف على جيتاره وباركني. يا إلهي..

أخبرتني هنادي أن سلام وفارس مترددان في الموافقة، يقولان إنني أكبرك كثيرًا، وإنك قريب من عمر سلام.. و.. و.. و..

خرجنا نحن الأربعة إلى مقهى، جلسنا وتحدثتُ إليهما كثيرًا، لم ألحظ عليهما الارتياح، كانا منكمشين على نفسيهما. بدأ الخوف يتسرب إلى نفسي، لكن هنادي كانت تهدهدني: لا تخف، سيوافقان، أنا أحبهما، وهما يحباننني كثيرًا، ويعلمان أنهما سيتركانني ويغادران إلى كندا للدراسة.

لم يلغِ حديث هنادي مخاوفي، وبدأت أحلام اليقظة تتلاشى شيئًا فشيئًا، كوابيس صغيرة تطلُّ في نومي من يوم لآخر.

ذات مساء، اتصلت بي هنادي.

- زياد، سآتي لزيارتك، زيارة بيتك، أقصد بيتنا.

لم أصدق، ماذا تقول، أنا أحلم.

تابعت هنادي على التليفون:

- عندك نبيذ، أقصد نبيذًا أبيض.

- نعم، نعم، نعم.. أنا أنتظر..

السابعة والنصف مساءً كانت تدق جرس البيت، دلفت إلى البيت، لم تكن تلبس بنطالًا أو فانلة، وإنما فستانًا ملونًا جذابًا، تضع إيشاربًا أصفر حول عنقها، متوردة وجميلة ورائعة.

عطر، عطر، عطر..

أخيرًا، أنثى، غير أمي، يبعث عطرها الحياة في البيت، بيتي.

كنتُ أهذي:

- هنادي، أنت ساحرة.
- أنا أحبك.

همست وهي تغمض عينيها.

أغمضنا عيوننا، ساعتين لا أكثر.

غيمة الربيع، كأنها تتلاشى.

قالت وهي تغادر البيت: لم أشعر بهذا الصفاء منذ الطفولة.

قلتُ: أود لو أنام هادئًا، ولا أصحو.

سماء زرقاء، صيف..

اليوم التالي، بدأ الزبائن بعد العاشرة يأخذون طلباتهم. شوبان، كلما ارتفعت نغمة موسيقاه أكثر كنت فرحًا، أبث الفرح أيضًا.

حضر صاحب الصيدلية المجاورة لبيتي.

- السيد زياد، لك مغلف رسالة..

فوجئتُ:

- رسالة لي؟

تابع الصيدلي:

- نعم لك، البارحة مساءً بعد العاشرة سلمتها لي سيدة أنيقة، قالت إن المخبازة مغلقة، وطلبت أن أعطيك إياها صباحًا.
- شكرًا، شكرًا لك.

فضضتُ المغلف، ورقة صغيرة، ورقة صغيرة بحجم الكف، تخبرني هنادي بأنه في اللحظة التي سأقرأ تلك الورقة ستكون هي وسلام وفارس في الجو متجهين إلى كندا، عودة إلى كندا. لم يوافقا على الزواج، أحبك كما لم أحب أحدًا من قبل. فرناندو، أقصد زياد، وداعًا.

تجمَّد كل شيء، دمعي، عقلي، وجهي، جسدي، أصابعي، حلّ الوجوم.

أقفلت موسيقى شوبان، جلستُ أمام المخبازة على كرسي صغير أرنو إلى لا شيء.

إذن كانت تودعني ليلة البارحة، يا إلهي.

الإحباط كان السيد. شعري أشعث، وذقني طالت، لكن العمل لم يتوقف، صيف، خريف، شتاء.

الربيع الذي يلي، عاد شيء من التوازن إلى حياتي، كنت أجلس على كرسي صغير أمام المخبازة، وبعد أن انتهيت من الفترة الأولى للعمل، الساعة تتجه إلى الثانية عشرة، أشعلتُ سيجارة وفكرت..

معهد ليوناردو دافنشي، سأتعلم الإيطالية مساءً، نعم، الإيطالية مساءً، اللغة السادسة.

ربيع بعيد..

كنتُ أفكر، انبثاق ربيع من ربيع.

صباحًا، الحادية عشر صباحًا، أوشكت الفترة الصباحية على الانتهاء. كنت قد أتقنتُ أيضًا البرتغالية.

جلستُ أمام المخبازة على مقعدي المفضل، أشعلت سيجارة، أصبحتُ على مشارف الأربعين.

وقفت عربة صغيرة أمام المخبازة، نزلت سيدة ومعها طفل وطفلة، هي، هنادي، لم تتغير، وجهها، شعرها، قوامها ورقّتها، غير شعر مشوّش بالأبيض.

تقدمَت نحوي، مدت يدها، لامستُ يدها، سحرها القديم.

- بنجور زياد.

كنتُ أحلم..

- بنجورنو، هنادي (بالإيطالية).

ثم تابعَت:

- ياسر وزينة، هؤلاء أحفادي..

- نعم..

قلتُ وأنا أحلم.

تابعَت هي:

- أتمنى لك أحفادًا مثلهم.
- هنادي، أنا ليس لي أبناء..

قلتُ مُغمغمًا.

تناولَت الحلوى والمعجنات ومضت بعيدًا حتى تلاشت.

الشتاء غواية

غواية النهاية..

مطرٌ غزير، عواصف تلاحق كلَّ شيء، ثلج يغطّي الأشجار.

كائنات تبحث عن مأوى مؤقَّت، طيور، قطط وكلاب شاردة، وبشر.

يومان وأكثر، لم تأتِ سُلافة.

التلفون مُقفل.

خوف وتوجُّس، ارتفاع بالضغط.

نهايات فبراير، شباط.

صباحًا، التاسعة والنصف صباحًا.

فتى وفتاة، دخلا مكتبهُ.

فتى طويل، حنطي اللون، ذو شارب أشقر رفيع، وفتاة صهباء، يمشيان بتؤدة.

دفعا الباب، دلفا إلى صالة كبيرة دافئة.

اتجها مباشرة إلى المكتب الكبير.

قرع الشاب بأنامله بابًا زجاجيًّا، دخلا إلى المكتب.

- أنا فارس.

قال الشاب وتابع:

- هذه أختي صبا.

قالت الفتاة بأنوثة ودلال:

- نحن أبناء السيدة سلافة، سلافة عمرو.

وقف الرجل الخمسيني خلف مكتبه، مفاجأة.

تنبعث من وجهه ابتسامة دافئة حزينة، حائرة.

مد يده بودٍّ بالغ:

«أهلًا، أهلًا بكما». طالبًا منهما الجلوس على مقعدين وثيرين أمام مكتبهِ.

تبادلَ الفتى والصبية نظرات وابتسامة، لكنهما ظلّا واقفين.

- السيدة سلافة لن تأتي.

قالت الفتاة.

قدَّما مغلفًا أبيض، غير مغلق.

أحسّ الرجلُ بكل ما فيه يذوي، طاقة تتبخَّر، جلسَ متهالكًا على مقعده.

نظر إليهما متسائلًا.

قال فارس:

- أبي عاد، عاد بشكل نهائي.

قالت صبا وهي تبتسم: تصالحا.

أضاف فارس:

- سافرا أمس، ثلاثة أيام أو أكثر، إلى فندق على البحر، إجازة.

حاول الرجلُ أن يستبقيهما، لا يدري لماذا، فقط يستأنس بهما.

«حلوى، مشروبات ساخنة».

اعتذرا بأدب جم، غادرا.

فضّ المغلف:

«عزيزي م. رجا المؤيد، تحية طيبة.

لا أدري ما أقوله، لكن، آسفة، هذه استقالة، أرجو تقبُّلها.

آسفة مرة أخرى. قلبٌ طيب، لن يرد».

سلافة عمرو.

وقع رأسه أمامًا على المكتب.

دوار، هذيان، شبح غيبوبة.

- يا إلهي!

امرأة ترمم نفسها

رجا المؤيد، مهندس معماري، أنهى عامه الثالث والخمسين، هذا الشتاء.

مكتبه الهندسي يحتل طابقًا أرضيًّا في عمارة قديمة في جبل الحسين.

فؤاد عباس، رسام هندسي، عملا معًا لسنوات، نجاحات متتالية. أول الشتاء وبداية ديسمبر كانون أول، قدّم فؤاد استقالته؛ عقدُ عملٍ في الإمارات المتحدة- دبي، راتب وامتيازات لا يستطيع رفضها، رغم إغراءات المهندس رجا.

إعلان في الجريدة، يأتي القليل.

هذا الصباح، في هذا الصقيع، دقّت سيدة باب المكتب ودلفَت إلى الصالة.

امرأة متوسطة الطول، نحيلة قليلًا، شعر كستنائي قصير، وجه أبيض مشوب بحُمرة جاذبة.

ابتسمَت برقَّة، خلعت معطفًا أنيقًا وشالًا كان يغطي نصف شعرها.

وقفت أمام فؤاد عباس:

- اسمي سلافة عمرو، هناك شاغر لوظيفة رسام هندسي.

مدت يدها بثقة.

- تفضلي، تفضلي.

جلست على المقعد في غرفة جانبية يشغلها فؤاد عباس.

قدم لها شايًا ساخنًا، ارتشفت قليلًا وتحدثت.

- شوف، أنا مهندسة معمارية، سنتان فقط في الجامعة، لم أكمل لظروف خاصة.

توقفت قليلًا وتابعت:

- عملتُ مدرسة رياضيات، فنون، روضة أطفال سنوات طويلة، حاجتي الخاصة.

أشاحت بيدها:

- أعلم أنه لا علاقة لهذا بالوظيفة، لكن معي دورات، أكثر من دورة مكثفة في الرسم الهندسي، أستطيع العمل مباشرة.

توقفت قليلًا ثم تابعت:

- عمري، تجاوزتُ اثنين وأربعين عامًا، لكني أستطيع العمل.
- أهلًا، أهلًا بك سيدتي.

أخذ فؤاد عباس أوراقها وذهب إلى غرفة المكتب، المهندس رجا المؤيد.

عاد بعد دقائق.

- دعيني أسألكِ وأستقصِ في حيثيات العمل، ونرى.

ابتسمت سلافة بثقة:

- لا مانع.

أكثر قليلًا من ساعة.

قال فؤاد عباس بثقة حادة ودافئة:

- سيدتي، لا يمكن لأحد رفضك.

ابتسمت سلافة.

ذهب فؤاد مرة أخرى إلى مكتب المهندس رجا ثم عاد.

- تستطيعين تسلّم العمل غدًا صباحًا، طبعًا تعرفين ساعات العمل.

ثم تابع:

- حظًا جيدًا، أنا سأترك العمل هذا اليوم. المهندس رجا المؤيد يريد رؤيتك، تفضلي.

خوخ كعكي فرنسي

بين برتقالة، وفاكهة مشتهاة، كعكة، شيء من الحرية، يا.. يا أمي..

قدّم لها نفسه، مهندس معماري، رجا المؤيد.

أعمل منذ سنوات طويلة، لاقيتُ نجاحًا معقولًا.

مثابر في عمله، تخرج في كلية للهندسة المعمارية، إيران، ولم يكمل.

قدمت السيدة سلافة نفسها بثقة.

مهندسة معمارية لم تكمل دراستها، ظروف خاصة، متزوجة، منفصلة الآن، لها خمسة أبناء؛ ولدان وثلاث بنات. الكبير، فارس، سيدخل الجامعة هذا العام، تليه صبا، سبعة عشر عامًا، ثم ليلى، سامية والصغير ماجد في السنة الثانية الابتدائية.

عملت مطولًا لتعيل نفسها، مدرسة رياضيات، فنون وروضات أطفال.

الزوج غير متعاون، سافر منذ سنوات إلى إسبانيا، سمعت أنه متزوج. انفصلا، يرسل القليل من النقود. لها أخٌ يعمل في الإمارات العربية المتحدة، يرسل لها مبلغًا شهريًّا، لكن ذلك كله لا يكفي. تسكن في «التاج»، يعني أنها ستأخذ مواصلتين لتصل، لكنها جدية ومثابرة.

فارس في الجامعة، ويدرس الهندسة هذا العام، ويحتاج إلى مصروفات.

بيت قديم في «التاج»، حديقة صغيرة، ورثته عن أبيها وتنازل لها عنه أخوها.

سمعها م. رجا المؤيد، كان يتأمّلها، تأمَّل وجهها، جبهتها العريضة، وشفتيها الصغيرتين، أغمض عينيه.

مد يده مودعًا:

- غدًا تتسلَّمين العمل، سلافة.. سيدة سلافة.

طبعًا عرفتِ مواعيد العمل والراتب من فؤاد. نلتقي غدًا صباحًا.

صقيع

- شاي، أم قهوة؟ سلافة.

صوت هادئ، رجا المؤيد من المطبخ.

- لا.. لا..

جاءت سلافة مسرعة.

- معقول! أنت ماذا تريد؟

- من فضلك، سيدة سلافة، ماذا تريدين؟

خجلت سلافة:

- شاي، الجو شديد البرودة. لا أدري لماذا لا يمنحون طلاب المدارس إجازة!

- جيد، سأعد لك شايًا ساخنًا، وسأعد لنفسي فنجانًا من القهوة.

- أستاذ، غيرت رأيي، سأشرب قهوة، قليل من السكر.

- هه، نشرب معًا.

جلسا في الصالة. أحضر قطعتين من الحلوى من مكتبه.

- آسف، كيف يتدبَّرون -أقصد الأبناء- أمورهم؟

تحدَّث رجا المؤيد بأدب جم.

- تعودنا، نعم، الكبار يرعون الصغار ويتبادلون العناية، المدارس قريبة، لكلٍّ مفتاحه، الطعام جاهز وموجود. فارس خرج صباحًا إلى الجامعة.

تحدَّثت سلافة بهدوء.

- الملابس تحمي، أعتقد. هه. تعلمين، كنتُ أعيش في بيتي هذا، القريب من العمل. سنوات طويلة كنت أعيش مع عمتي، كانت تعمل مُدرّسة، نفس المدرسة التي كنت بها، نذهب ونعود معًا. في الثالث الابتدائي انتقلتُ من مدرسة الإناث إلى مدرسة الذكور. كنتُ أسبقها في العودة، هه.

توقف رجا المؤيد عن الكلام، ثم تابع:

- مرَّ زمن طويل على ذلك. كانت الإدارات المدرسية متشددة، ذهبتُ إلى مدرستي، كنتُ قد تجاوزت الثامنة، عدنا مبكرين. ثلج، برد وصقيع، كنا نرتجف، رغم أني كنت ألبس ملابس ثقيلة. لم يكن معي مفتاح، جلستُ أمام باب البيت أنتظر عمتي، تأخرَت كثيرًا، ربما نسيتني. تجمدتُ، ونمت. كنتُ أرتجف، أبكي وأرتجف.

كرَّرَها أكثر من مرة، وكأن ذهنه غاب عن الوعي، ثم صحا فجأة:

- جاءت عمتي، أدخلتني، أشعلت المدفأة، شربتُ حساءً ساخنًا، لم تعتذر ولم تبرر غيابها.
- رجا، أنت رجل، ها، رجل!

أبي أيضًا كان كلما جاء من أسفاره الطويلة، حاملًا هداياه:

- رجا رجل، أعلم، أنت رجل.

نظرت سلافة إلى وجه رجا، وجه حنون ومسالم.

- أستاذ رجا، يعني، السيدة، يعني والدتك..

لم يدعها تكمل:

- أمي غادرت البيت، كنت في الثانية من عمري. أمي سيدة إيرانية، أبي وأمي انفصلا. عادت هي إلى إيران، تزوجَت.

أبي يعمل طبيبًا، طبيب حُميّات، كان يعمل مع منظمة الصحة العالمية، راتب كبير وأسفار كثيرة، له مغامراته وحياته الخاصة. عمتي هي من أشرفت على تربيتي، حازمة، قوية وباردة. كنت رجلًا منذ الطفولة، يرحمهم الله جميعًا.

تكلم رجا بذهول، نهض ولم يلتفت خلفه، واتجه إلى مكتبه، أغلق الباب.

خطوات ثقيلة، أدت بها، سلافة، إلى مكتبها. نظرَت إلى الباب المغلق لغرفته.

لا تدري لماذا، اعتقدَت أنه، ذلك الرجل القوي، الصلب والناجح، كان يبكي خافتًا.

مودة كسرت سطح الصقيع

يناير، أكثر برودة وأشد صقيعًا.

كانت تأتي مبكرة، تجده جالسًا في المكتب يعمل.

بيتها بعيد، مواصلتان حتى تصل.

بيته القديم قريب، يأتي ماشيًا.

عامل نظافة يأتي مرتين أسبوعيًّا لتنظيف المكتب.

سلافة، المهندس رجا، لكلٍّ استقلاليته في المكتب.

اقتربت منه، اقترب منها، ظلت مسافة صغيرة تبتعد بهما أو تقترب.

كانت سلافة تفتح نوافذها مشرعة وتحكي حياتها، زوجها، أبناءها، طموحها، عثراتها.

نوافذه، رجا المؤيد، مغلقة، أو تفتح قليلًا لتغلق بسرعة.

جاءت متأخرة ساعةً، المواصلات قليلة، الثلوج تغطي الشوارع.

دخلت المكتب، الصالة، بدأت بخلع معطفها وشالها.

جالسًا على الأرض، كان يئنُّ.

اتجهت مرتبكة تجاهه:

- أستاذ رجا، مالك!؟

أجاب محاولًا وَقفَ أنينه وإحساسه بالألم:

- تزحلقتُ، أمام المكتب، يبدو أن ساقي اليسرى، أقصد العظم، كُسِر.

- سأستدعي الإسعاف، المشفى قريب من هنا.

حاول أن يثنيها، لكن ذلك حدث.

الأشعة: كسر مزدوج في عظمتي الساق الأيسر. جبيرة ومسكنات قوية. أخذَتْهُ إلى بيته القريب، لأول مرةٍ تدخل ذلك البيت.

غطته، حضَّرت له مشروبات وحساءً ساخنًا. بقيت إلى جانبه حتى المساء.

طلب إليها أن تذهب؛ أبناؤها ينتظرون.

وافقت.

- سنظل على اتصال، سأزورك يوميًّا قبل بداية عملي في المكتب وظُهرًا. لا تغادر سريرك.

تحسنت حالته قليلًا لكن حمّى أصابته، حرارة وآلام جسدية.

أحضرت طبيبًا من المشفى القريب. جرحه كان ملتهبًا، غيّرَ الجبيرة، ونظف الجرح.

أخبرها كيف تعتني به.

- زوجك يحتاج إلى العناية والتغذية.

قال الطبيب وهو يغادر.

- شكرًا دكتور.

ابتسمت.

أسبوعٌ مضى قبل أن يعود لمكتبه.

هذيان

تعوده كل يوم، صباحًا وحتى بداية الليل.

يومان من الحمى والهذيان.

تصغي إليه، لا تتكلم. تصغي وتبتسم.

عيناه زائغتان، يرتجف، وجهه محتقن.

أخبرها عن نباح، نباح يفيد الروح، اليقظة والحياة، نباح الكلاب.

- اعتقدتُ أن الموات والخراب هلّ ولن يغادر.

تستمع، تعطيه دواءه، غذاءه، وتنظف أشياءه.

أخبرها، كان يهذي.

- درستُ الهندسة في إيران، بحثت عن أمي، تعبت، وجدتها أخيرًا.

أخبرها أن اللقاء كان مفتعلًا، لم يعرفها وربما لم تعرفه. زوجها كان محايدًا، إخوته تجاهلوه.

- لم أزرهم كثيرًا.

انقطعَ عن زيارتهم بحجج مختلفة.

- التي كانت تضمني إلى صدرها لم تكن أمي.

قالت: ها، رجا لقد كبرت.

قلتُ في نفسي: عمن تتحدثين يا سيدتي، أمي.

- كنت أكذب، أكذب لكي تكون عمتي راضية عني. أنا كبير، نعم، أنا كبير.

و.. وتعيس.

كنت أحتمي وأتدفّأ بالكذب.

أبي المسافر دائمًا، توفّي، أو قُتل في أمريكا الجنوبية. عصابات وحميات!؟

- أنت رجُل!
- و.. وهدايا.

ذهب أبي هو الآخر.

ربتني عمتي، كبرت وذهبت هي الأخرى.

عشت وحيدًا، أُفضّل العزلة.

حين أنهيت الجامعة، فقط قبل موعد إقلاع الطائرة بساعة، اتصلتُ بالسَّيّدة أمي، مودّعًا.

سألَت لماذا لم تزرنا. كان حديثًا مجاملًا.

أخبرتها بأني كنت مشغولًا طوال الوقت.

تكذب، كنتُ أكذب، لكي أنجو، أو أخلق نوعًا من فرح، بهجة لنفسي.

- نحن نسهمُ في صنع صورة الآخر، نُحبّه، نعشقه.

تحدث رجا وهو يفتح عينيه، يومان من الحمى والهذيان.

أمسكت بيديه.

شعر بالأمان.

- أنت طفل.

قالت سلافة.

- الآن فقط.

قال.

- يبدو أني تعلقتُ بكِ.

همهم رجا.

غمغمت لنفسها شيئًا لم يسمعه أحد.

انتهى الأسبوع، عادا للمكتب، العمل.

عاصفة ثلجية، غواية

عاصفة ثلجية، نهاية الليل.

بطيئة، لكنها ثابتة، متصاعدة، متراكمة وقاسية.

أخبرها ألّا تأتي، لا داعي.

أصرت على المجيء. الأبناء جميعًا في البيت، كل شيء متوفر؛ دفء، طعام، وتلفزيون.

تأخرَت ساعتين، أقبلَت تلهث. دلفت إلى الصالة، نظَّفت ما علق بها من ثلج.

رقيقة، دافئة، كثيرة الحركة.

باب مكتبه كان مفتوحًا.

- لا أعرف إن كان جيدًا، أم لا.. هذا سحلب، قمت بعمله.

قرفة وزبيب، وبخار يصعد من طبق.

- لماذا أتيتِ؟

لم تدعه يكمل، رفعت يدها:

- حينما لا أكون معك، أشعر بغربة.

ظل صامتًا..

لم يتحدث.

لم يشأ أن يتكلم، ربما لم يستطع.

عيناها تشيان بدفء غامر.

لكنه ظلَّ صامتًا.

مضت الساعات، طلب منها أن تعود، المواصلات في غاية الصعوبة، أخبرها أن يقوم بإيصالها بسيارته.

ابتسمت.

- لا.

- الثلوج تسد الطرقات.

قال.

- بيتك قريب، نمشي إليه.

أصابه وجوم.

- هذه الليلة، سنقضيها معًا، في البيت.

مشيٌ بطيء ومتعثر.

- ربما، لا أدري.

ثم اختنق صوته.

- أنا الآن، أستعيد طفولتي.

غرفة على البحر

استفاقت سلافة، الجو دافئ.

كان فايز يجلس على كنبة، نعاس يملأ عينيها، غلالة وردية، شعر ناعم متناثر.

تبادلا نظرات شبق.

- سأذهب لآخذ حمامًا سريعًا.

تحدثت سلافة بدلال.

- طلبتُ إفطارًا خاصًّا في الغرفة.

تحدث زوجها فايز بهدوء.

أحضر النادل الإفطار وجرائد الصباح.

لم يكن فايز يهتم بالأخبار أو السياسة، صفحة الحوادث مسلية.

لفت نظره ذلك الخبر.

انتحار مهندس، 53 عامًا في مكتبه.

وجدت الشرطة ورقة صغيرة إلى جانبه.

« لا أحد يكترث لوجودي، لا أحد»

ر.م

شيء من الاستغراب أصابه.

خرجت سلافة مبلولة من الحمام، تناولت كأسًا من عصير البرتقال، ارتشفت شيئًا منه.

أمسك فايز بيدها.

- غريب أمر هؤلاء الناس، لماذا وكيف ينتحرون؟!

غمغم فايز.

سمعته، لم تفهم. لم تُبالِ.

أمينـــــة

مقهى وحلوى

جاء رجل السادسة الهادئ.

مساء كل ثلاثاء، يدخل رجل طويل، نحيل، أسمر، أنيق ببساطة، إلى المقهى الصغير.

صالة صغيرة وطويلة، طاولتان صغيرتان ومقعدان لكل طاولة، كاونتر طويل مرتفع، وستّ من المقاعد الطويلة بلا ظهر أمام الكاونتر. يتجه إلى الطاولة الداخلية، يسحب مقعدًا ما ويجلس. فنجان من القهوة يأتي به ياسر أو حاتم؛ شابان مصريان يعملان من العاشرة صباحًا حتى العاشرة مساءً في المقهى.

السيدة خلف الكاونتر تجلس هادئة في ركن على مقعد طويل بلا ظهر، تتأمل القادمين. السيدة أمينة، متوسطة الحجم، شعر أسود طويل منسدل، يعلوه شال أحمر يغطي رأسها من منتصفه. رقيقة وهادئة، تلوّح بيديها، ياسر أو حاتم يستجيبان للزبائن.

لم يُثِرْ رجل السادسة اهتمامًا.

أسابيع خلت، يأتي في السادسة مساءً، يجلس. فنجان قهوة، ثم قطعة من الحلوى. لا يرى أحدًا، مستغرق تمامًا في نفسه. السادسة والنصف مساءً، يدفع للنادل نقودًا ويغادر، دون أن ينظر في ساعته.

أَلِفَ المكان، وأَلِفَه المكان.

تردَّد كلَّ ثلاثاء، بشكل متوالٍ: خميس، سبت، أحد، ثم طيلة أيام الأسبوع.

يأتي، قهوة، قطعة حلوى، نصف ساعة ويغادر في صمت مطبق.

تغيير بسيط قد حدث، إيماءة ودودة وخجولة من رأسه، وشبح ابتسامة تحية للنادلين ياسر وحاتم، لم يوجّه نظره قط إلى السيدة.

هذا المساء، نسمة خفيفة تخفّف من قيظ صيفه.

جلس في ركنه المعتاد، جاء حاتم ووضع فنجانًا من القهوة أمامه محييًا.

بعد عشر دقائق كانت تقف بهدوء أمامه، لم يرها، كان يحدّق في خشب الكاونتر.

- مساء الخير أستاذ.

انساب صوت رقيق ناعم.

نظر إلى وجه أسمر رائق، ابتسامة هادئة. تابعت السيدة:

- بودي أن أقدّم لك قطعة حلوى، جديدة.

تلاقت عيناه بعينيها. وكأنه يسأل في حيرة ورقَّة، لكنه لم يتكلم.

- أردت أن أستأذنك، أستاذ.

أومأ موافقًا بتردد، ثم جاءت تحمل قطعة حلوى على طبق ملون.

تأمَّلَ خفها الزهري، بنطالَ جينز أزرق، قوام رشيق وشعر أسود منسدل، لكنَّ العينين توَّجتا ابتسامة رقيقة.

- تفضل، حلوى، تفاح وزنجبيل وقرفة.

تراجعت إلى الخلف وذهبت إلى مقعدها خلف الكاونتر.

السادسة والنصف تأهَّبَ للمغادرة، لم يأتِ أحد لأخذ النقود، حيرة صغيرة.

السيدة كانت أمامه مبتسمة.

- اليوم على حساب المقهى، لا تناقش.

ثم نظرت إلى طبق الحلوى الفارغ.

- رائع، أكثر من رائع، ودافئ، شكرًا سيدة..

قالت بهدوء ونعومة:

- أمينة، اسمي أمينة.

شبح ابتسامة هادئة وإيماءة شكر من رأسه، ثم مضى إلى الشارع في السادسة والنصف.

تردَد باستمرار، لا غياب أبدًا.

لم تشأ استفزازه، رغم شعورها بغرابته وشيء من غموض.

تعود، قهوة وقطعة الحلوى، تفاح وزنجبيل وقهوة. أضاف ابتسامة حزينة باهتة يوجهها للسيدة، السيدة أمينة، محييًا إياها.

خـــــارج المكان..

أيام قليلة، أربعة أيام، كان يرى ياسر وحاتم يحييانه ويحضران القهوة، ثم الحلوى، ويغادر في السادسة والنصف، لم يلحظْ وجود السيدة، تجاهلَ ذلك.

في اليوم الخامس، سأل عنها مترددًا، وقف النادل حاتم أمام طاولته، تلعثمَ، لكنه شعر بود ودفء وهو يقول بألم: عادت إلى شقتها قبل أيام، ولم تجد أباها، خرج ولم يعُد. سامحني أستاذ، أبوها مصاب بمرض الزهايمر، ليس له إلا هيَ. لا تدري كيف خرج ولم يعرف كيف يعود، وهي تبحث عنه بلا جدوى.

تأمَّل وجه النادل، الكاونتر، المقعد الذي كانت تجلس عليه.

- رجاءً، لو تعطيني رقم هاتفها، أستطيع مساعدتها.

تردَّد حاتم، لكنه وافق.

اتصل بها.

- السيدة أمينة..

ردت بلهفة، كانت تعتقد أن أحدًا ما سيخبرها عن مكان وجود أبيها.

- أنا ناجي، لا تذكرينني.. أتردَّد على المقهى مساءً، كلَّ يوم.

طلب مقابلتها، وأخبرها أنه سيكرّس وقته لمساعدتها في البحث عن أبيها، كان الفصل صيفًا. كانت تبحث عن قشة توصلها إلى أبيها.

وافقَت.

التقيا في مقهىً وسط البلد، حين رأته، تأكدت أنه نفس الرجل الذي يتردَّد على المقهى.

جلسا على طاولة، جاء النادل بالقهوة.

ابتسمَ: قهوة بلا حلوى السيدة أمينة.

ابتسمت حزينةً.

أخرج دفترًا صغيرًا وقلمًا، أخبرتهُ أن أباها، ومنذ سنة ونصف، بدأ سلوكه يتغير. في البداية نسيان لأشياء بسيطة، لكنه يتذكر الماضي، يحافظ على أناقته، يحلق ذقنه ويأخذ حمّامًا، يعرفني، يتأمّلني. يخرج ويعود ظُهرًا إلى شقتنا، أنا وهو فقط.

النسيان انتقل إلى الأفعال، يقول إنه تناول فطوره أو غداءه، وهذا غير صحيح، يتحدَّث عن الماضي فقط، قريته، طفولته، تخرجه في الجامعة، عمل مدرسا للرياضيات في أكثر من مدرسة ثانوية، علاقة حب مع أمي، وكيف تحدّت أباها، جدي، وتزوجته ولم تهاجر مع جدي إلى أمريكا، ثم تركته، لا يفهم لماذا تركته.

- آسفة أستاذ ناجي، لكن..

أخبرَته أنها بلغت مخافر الشرطة، وذهبت إلى المستشفيات الحكومية بلا فائدة.

وضع خطة، زيارة المستشفيات، حكومية أو خاصة، المشرحة، الأماكن التي عمل بها، الأماكن التي كان يحبّها، وبدأ رحلة البحث، أخذت سيارة من خالتها تغريد، وانطلقا.

حِنّ..

بـدأنا بالمستشـفيات الحكوميـة ثـم الخاصـة، المشـرحة ثـم طبيبـه الخاص.

آخر مدرسة ثانوية عمل بها، ثم المدرسة الخاصة التي عمل بها بعد التقاعد. الردود كانت سلبية، كما هي ردود الشرطة. أصدقاؤه عن بعد لم يروه منذ أكثر من سنتين. أقارب من بعيد، ثم انتقلنا إلى مدينتين عمل بهما لفترات قصيرة، معارف من بعيد أو قريب. المتجر الصغير الذي كان يتردَّد عليه، مقهى كان مفضَّلًا عنده، بلا جدوى. شوارع وسط البلد، كان يفضّلها، مطاعم شعبية، أدراج وسط البلد، مكتبتان كان يؤثرهما، أزقة وأسواق شعبية في المخيمات. لا فائدة.

تخرج صباحًا، تأتي إلى العمارة التي يقطنها ناجي، حيث ينتظرها، ويتجوَّلان وفقًا لخطة اليوم التي وضعها.

يتناولان سندويتشات وبعضًا من شراب ساخن في استراحة هنا أو هناك، تحدَّثا بحميمية.

كيف تركتها الأم، حينما كانت في الخامسة من عمرها وقررت أن تلبي رغبة والدها والهجرة إلى أمريكا. طلبت الانفصال بلا مقدمات، كانت صدمةً للأب. تريد حياة جديدة حافلة، بها صخب، لا تريد أن تُقبَر هنا.

- الطفلة أمينة، ليكن، خذها، أنا أتنازل لك عنها.

كان أبي وسيمًا رقيقًا، وهادئًا، مدرس الرياضيات، تقبل الأمر الثقيل بنوع من الرضا الغريب. رغم علاقة الحب التي كانت تجمعهما قبل الزواج وبعده، أصرّت على تركه. مدرس رياضيات، لا مستقبل. ينتقل من مدرسة إلى مدرسة، من مدينة إلى مدينة، حياة هادئة متواضعة.

حاولت الخالة، الأصغر سنًا، تغريد، ثنيها، بلا فائدة. كانت الخالة تغريد متزوجة من مهندس مدني ناجح، لم ينجبا، خلل في الزوج، لكن تغريد تحبه ولم ينفصلا. كانت تعمل إلكترونيًّا من البيت، وكانت حياتها هادئة.

كنتُ صغيرة، سألت أبي مرارًا أين ذهبت أمي ومتى تعود، يجيب باقتضاب وحنو:

- ذهبت لتزور جدك في أمريكا، ستعود، ستعود، ولم تعد.

يصحو مبكرًا، يعد الإفطار ويوقظ طفلته الصغيرة أمينة، حمام صغير، وملابس جديدة وإفطار، ويحملها إلى خالتها تغريد التي تعهَّدت بأخذها حتى يعود مساءً من المدرسة، يأخذها إلى البيت، يُعدُّ غداء ساخنًا، ثم يخرجان قليلًا لنزهة في حديقة، أو شارع قريب.

تعوّد على ذلك، وتعودت هداياه الصغيرة الجميلة، تحبه، أكثر، هي تعشقه.

كبر وكبرت، ثم تخرَّجت في الجامعة، آداب، لم تعمل.

اقترحت الخالة تغريد، مقهى وحلوى، وكان. هي تديره، ومعها نادلان، حاتم وياسر، عمل موفق.

تقاعد الأب، ثم عمل مدرسًا في مدرسة خاصة حتى تقاعد مرة أخرى، ضمان اجتماعي، وكانت لهما شقتهما الصغيرة. لم يتزوَّج، حياة هادئة رتيبة، وجانبه ظلت أمينة في إساره، إسار أبيها الأستاذ سعيد. نسيت الأم، أمَّها رشيدة، تمامًا، وإن كانت ترى صورًا لها عند الخالة تغريد. سيّدة متوهجة، صاخبة، تملأ وجهها وشعرها أصباغ لم تطقها، كانت تسميها سيدة الأصباغ.

ذات يوم كانت الخالة تغريد على التلفون وطلبت منها أن تأتي إلى بيتها، ذهبت من المقهى إلى بيت الخالة، استقبلتها بترحاب خاص. رأت امرأة غريبة في صالون البيت، شعر أشقر، وجه ضاحك، وأصباغ تملأ الوجه، ويدان مُرحّبتان للعناق. لم تفهم أمينة شيئًا، وجاء صوت:

كبرتِ، كبرتِ يا حبيبتي أمينة، تعالي.

وتقدمت لاحتضانها. توتَّر جسد أمينة ووجهها، تراجعت إلى الخلف.

- أمينة، مالك، أنا ماما، مشتاقة لك، وعملت معاملة هجرة لك، سنذهب إلى أمريكا، بيت جدك صالح.

تراجعت أمينة إلى الخلف ورمقت الخالة تغريد بغضب.

- لا.

قالت أمينة بحدّة، واتجهت إلى الباب الخارجي.

علا صوت رشيدة صاخبًا:

- ستظلّين في مقبرة، هه كما تشائين.

صفقت أمينة الباب.

مساءً، حينما حكت أمينة لأبيها ما حدث، استمع بهدوء، لامها برفق:

- هذه أمك، أمينة!

- أنت تقول هذا، أنت؟! بعدما فعلت بك وبي ما فعلت، أنت؟!

ذهب الأستاذ سعيد إلى غرفته بهدوء وأغلق الباب، شعرت أمينة بقسوة ما قالته لأبيها، تقدمت نحو باب غرفته، لم تفتح الباب. سمعت شهيقًا وبكاءً صامتًا.

حينما روت لناجي بعضًا من حكايتها شعرت براحة وحميمية تجاه ذلك الكائن.

ذلك الصباح أخبرته عن قرية ريفية بعيدة، بساتين عنب وتين وأنواع كثيرة من الخوخ، بشرٌ طيبون. إلى جانب تلك القرية كسارات لقطع الحجارة. كانت تلك الزيارة تذكّره بقريته الأصلية، يلجأ إليها أحيانًا قليلة في السنة كلما ناداه حنين للماضي.

توجها، أمينة وناجي، إلى تلك القرية، قريبًا من الحادية عشر صباحًا كانا بين بساتين القرية. الزيارة كانت غريبة، سألا عن رجل مسن مفقود.

أجاب رجل ملتحٍ:

- آه، نعم، وجدنا رجلًا مسنًا هنا، عند الكسارات، كان نائمًا بكامل أناقته، ذقن بيضاء، لكنه لا يحمل بطاقة هوية أو أي شيء يُعرّف بشخصيته، وهو لا يعرف أحدًا حتى نفسه.

ذهبا إلى بيت الرجل الملتحي، دخلا غرفة نوم بسيطة، كان نائمًا. أيقظاه، هو، الأستاذ سعيد، أخيرًا.

دفعت أمينة بهويته ودفتر العائلة إلى الرجل الملتحي.

- هذا أبي، هو مصاب بمرض زهايمر، لا، هو حتى لا يعرفني.

ألبسته ملابسه كاملةً وذهبا إلى السيارة، كان ينظر إليها وإلى ناجي باستغراب. أجلساه في المقعد الخلفي.

بدأت بالسياقة وناجي إلى جانبها، صمتٌ، خرجت همهمة من الخلف ثم تعالت أكثر، خرج صوت الأستاذ سعيد في غناء، أغنية قديمة جدًّا لمحمد عبد الوهاب:

«حِنّ.. حن ياللي هجرت الروح وملكش قلب يحن.. قلبي أنا مجروح بين الضلوع بيئن ارحم آلامي وحن..».

انسابت دمعة على خدها، وكبتت أمينة غصَّة في قلبها، بينما تماسك ناجي.

ذهبت به إلى البيت، طعام ساخن، وحمام ونوم، وأقفلت الشقة.

إســـــــــــار أُمّ..

توطدت العلاقة بينهما، علاقة هادئة، أخبرها عن علاقته بأمه. مات أبوه وهو صغير وتركه هو وأخوه الأصغر راضي، والأم.

راتب تقاعد بسيط، كان يتحدث بحنو بالغ عن أمه، عملت مُدرّسة في مدرسة ابتدائية خاصة براتب ضئيل، طيبة، هادئة، حازمة ورقيقة. كبرا، تخرج راضي في الجامعة مبرمِجًا، تقدم في العمل وتزوَّج، بينما تخرج هو في كلية الآداب، قسم مكتبات. عمل أمينًا للمكتبة في أكثر من مدرسة ثانوية، بقي عازبًا، ظلَّ عازبًا، وظلَّ يعتني بأمه طيلة حياتها. يقوم بطهي الطعام، أخذها إلى الحمام وحتى في السنوات الأخيرة، يقوم بمساعدتها للاستحمام. ظلَّ متعلقًا بها، يحبّها.

قبل أن تغادر الحياة بدا شيء من خرف الشيخوخة، تنسى، تنسى أشياء كثيرة وخاصة، لا تتذكر إلا الماضي البعيد، تعيد حكايته مرات عديدة دون أن تكل أو تتعب، ثم بدأت لا تتعرف باب الحمام أو باب الشقة، ثم لا تعرف حاجتها إلى الذهاب إلى الحمام، أو تناول الطعام، ثم غادرت الحياة.

كان هو في السابعة والأربعين، فكرت أمينة:

- خرجَ من إسار أمه، وخرجتُ من إسار أبي. كانت قد أخبرته أنه قريب منها.

قال: أنا أكبرك باثنين وعشرين عامًا.

- لا يهم.

قالت.

أخبرها أنه يتذكر أباها، عمل لأشهر قليلة في المدرسة التي كان يعمل بها، كان هادئًا، طيبًا ومحبوبًا.

قالت له:

- ناجي، أنت لست أبي.

كادت أن تقول: وأنا لست أمك.

لكنها لم تقل.

نهـــايـــة..

مرت أيام، يوم، يومان، ثلاثة، أربعة، لم يأتِ.

لم يأتِ.

في اليوم الخامس، انتابها بعضٌ من قلق، اتصلت به، لم يردّ.

عاودت الاتصال أكثر من مرة، لم يرد.

كانت تعرف مكان سكنه، أوصلته أكثر من مرة.

ذهبت، الطابق الأخير حيث شقته، قرعت جرس الباب، لم يرد، خبطت بكلتا يديها خشب الباب، لم يرد.

انتابها شيء من الهلع، ركضت نازلة درجات الطوابق الأربعة، سألت الحارس، قال لها إنه لم يرَ الأستاذ ناجي يخرج منذ خمسة أيام. طلبت منه أن يصعد معها، طلبت منه أن يخلع الباب.

تردد الحارس، أخبرته أنها خطيبته.

خلع الباب، دخلت هي، والحارس من خلفها.

كان مستلقيًا على أريكة زرقاء مادًا قدميه، رأسه منحنٍ على كتفه، بكامل أناقته. بجانبه مسجلة قديمة وشريط وورقة.

أخبرها الحارس، الأستاذ ناجي ميت. أحضر طبيبًا، أكد أن الوفاة حدثت منذ أقل من أربع وعشرين ساعة، لا أكثر. تلفونه كان بعيدًا عنه.

ورقة كتب عليها: أمينة، الكائنات التي تفرح، تحزن وتتألم.

الشريط كانت عليه أغنية عبد الوهاب، حِنّ. مسجلة ثلاث مرات متوالية، ثم لا شيء.

***

قامت بتسجيل رسالة ماجستير آداب، اقتراح من خالتها تغريد. وقتها يمضي ما بين العناية بأب تائه، طعام وغسيل وحمام، عناية خاصة، إعداد الحلوى، حلوى تفاح وزنجبيل وقرفة للمقهى، ورسالة الماجستير.

كانت تضبط مواعيدها أن تكون في المقهى قبل الساعة السادسة مساءً يوميًّا.

تجلس خلف الكاونتر، تنظر إلى الباب، السادسة مساءً تنتظر قدومه. تفقد الأمل عند السادسة والنصف وهي تنظر إلى ركنه.

ذات مساء، يوم ثلاثاء، الساعة السادسة مساءً، نظرت إلى باب المقهى، دخل شبح، حيّا بإيماءة، جلس في الركن البعيد.

نهضت، أحضرت قهوة، وضعتها على الطاولة ثم غابت لتحضر قطعة من الحلوى، تفاح، زنجبيل، وقرفة. وضعتها على الطاولة وابتسمت.

- هذه لك يا.. يا ناجي.

تبادل النادلان ياسر وحاتم نظرة حزينة، عادت إلى مقعدها الطويل وجلست.

بيت رحيم

خريـــــــف

نسمة باردة، أوائل أكتوبر، تشرين الثاني 1994.

- خالتي رحيمة، خالتي، رحيمة.

ثُلّة من أطفال الحارة تزعق أمام دكانة صغيرة، أول صف للمخيم.

وقفت السيدة العجوز، سوّت منديلها الأبيض، وظهرت خصلة بيضاء من شعرها. نظرت بدهشة إلى أطفال الحارة.

- المحامية، المحامية تريدك.

سيارة جيب سوزوكي زرقاء، بعيدة، لا تصل إلى الدكانة.

المحامية ومعها شخص غريب، يقتربان من الدكانة.

عرَفَتها، المحامية اليهودية، رومي لانجر.

مدت المحامية يدها مسَلّمة على رحيمة، وفعل مرافقها نفس الشيء.

- أهلًا، أهلًا ست رومي.

قالت رحيمة.

- هل نشرب شايًا داخل بيتك، ست رحيمة؟

قالت المحامية برقةٍ وثبات.

- تفضلوا، تفضلوا.

دلفوا إلى وحدة سكن السيدة رحيمة، بجانب الدكان.

أحضرت رحيمة الشاي وبعضًا من نعناع أخضر.

جلسا على مقعدين من قش.

- رحيمة، أمي رحيمة، هذا محامي يعمل حديثًا معي، ابن عمٍ لي، هايدر لانجر.

لم تقل إنه ضابط متقاعد من الشرطة العسكرية.

ظلت رحيمة واقفة.

- اجلسي رحيمة، تفضلي.

ثم تابعت المحامية رومي:

- أمي، هناك خبر، فرح، حزين، لا أدري.

قالت المحامية بهدوء، ثم تابعت:

- عرفنا مأوى، مكان رحيم، أمي.

وقفت رحيمة، لم تستطع أن تنبس بكلمة، تجمد كل شيء، رأسها، وجهها، شفتاها، يداها وقدماها.

وقفت المحامية وتقدمت نحو رحيمة وهزتها.

- أمي، رحيمة، نعم، مأوى رحيم.

لم يشربوا شيئًا من الشاي، وغادروا.

ظلت رحيمة متجمدة مكانها.

انتظرت غياب القمر، يومًا بيوم.

مـــــأوى

تتحسَّس رحيمة، الأنثى، الأم، تتحسَّس بكلتا يديها البطن، ثم تنزل إلى الحوض.

تشرُدُ، ترنو عيناها بعيدًا وداخلًا في ظلمة البعد.

- أين سيأوي ليلًا؟

الرضيع، الولد، المراهق، الشاب، الربيعي، الخريفي، الكهل.

أين يبيت!

تغمض عينيها.

لا جواب.

اسمها رحيمة.

هكذا سمّاها الأب.

الأم والحارة، ينادونها «ذيبة».

وحيدة الأبوين.

جاء وحيدُها، أسمتهُ «رحيم».

سمّاه عبد الكريم، الأب، ذيب.

غاب رحيم، ذيب، في البراري والقفار والليل البهيم، خرج ولم يعُد.

تبحث عنه، رحيمة، ذيبة.

بكل الحواس، كل الحواس تشم أثره.

أول بيت، رحِمي، رحم الأنثى.

تشرُّدٌ وهِجرة.

فلاحة، تحمل طفلًا في قدح من قشٍّ، يعلو رأسها.

في يدها اليسرى بقجة.

تسير وتسير.

قبل أن تستقر تحت شجرة توت وارفة، ووفرة من ثمار التوت على طرف القرية التي أصبحت ملاصقة للمخيم لاحقًا، ظلٌّ لا ينتهي.

هرب الأولاد، كان رحيم صغيرًا، بقي وحيدًا، لم يهرب.

لم يبدُ الغضب على وجه السيدة.

- لماذا هربوا؟

قالت السيدة ذات الملابس السوداء والشعر الأبيض.

حركة كتفيّ ووجهي تعني: لا أدري.

تقدّمَت نحوي، مدّت قدحًا مليئًا بالتوت.

وقفتُ واجمًا.

- هيه، خذ.

لم أتحرك.

- توت، توت، قبضة يدك.

قبضة يدي الصغيرة امتلأت بشيء من حبات التوت.

تسلل عبد الكريم، زوج رحيمة مع بعض من سكان القرية، كي يحضروا بعضًا من متاع أو مدخرات نسوها، ذهب سالم ذو الأربعة عشر عامًا معه.

عادوا جميعًا، ولم يعُد عبد الكريم.

أطلقوا رصاصًا عليهم.

عادوا جميعًا وسالم الأخ الأصغر لرحيمة.

ولم يعد.

كانت عيناه منتفختين، وشيءٌ من الدم على قميصه.

بكى، ناولها صرتين صغيرتين، صرة بها قِطَع ذهب مجيدي (عثملي) مهرها، وصرة بها أوراق جنيهات فلسطينية.

قبل أن يلفظ عبد الكريم أنفاسه، ناولها لسالم.

- رحيمة، رحيمة ورحيم يا سالم.

خيـــمة

بيت؟

سقف، حيطان.

عزلة عن الآخر.

كون، أكوان، سماء، فضاء مفتوح؟!

أصبح لنا بيت.

خيمة، قريبة من شجرة التوت.

رحيمة، رحيم والخال سالم.

ننام، نأكل، نغتسل، نقضي الحاجة في الخلاء.

وجزءٌ صغير، دكانة بيع.

يذهب الصغير رحيم إلى بستان صغير، حاكورة.

- سأبني بيتًا صغيرًا جدًّا، هنا.

نباتات، أشجار برية وأعشاب وانحدار خفيف.

وحدة سكنية، باب وشباك من خشب.

أضاف الخال سالم غرفة جانبية، مطبخ وبيت خلاء، ثم مكانًا مظلَّلًا بإسبست، دكانة صغيرة.

تقف بها رحيمة وتبيع، ثم غرفة أخرى صغيرة.

غادَرَنا خالي سالم إلى الكويت، شهادة مترك بيده.

نقودٌ وبعض من هدايا لرحيم ورحيمة، وزيارات كل سنتين.

انتظار

قمرٌ جميل، قبيح. لا جميل ومضيء. تنتظر رحيمة ليلة غيابه.

تُحدّث نفسها.

رحيم في مصر، مهندس زراعي، هكذا يكون، ويعود.

تنكبّ رحيمة في دكانتها، تعمل من الصباح حتى أول الليل.

يرسل سالم حوالته إلى رحيم، كل بضعة أشهر.

يسكن غرفة على ظهر عمارة، حي شعبي. لكن لا شجرة توت، كائنات دافئة وحنونة تحيطه.

حينما جاء موعد عودته، كان قد أنهى سنة أولى بنجاح.

راديو ترانزستور صغير، جلد بني، الموجة، أين الموجة. البث، يبدو أن البث قد انتهى.

وقعت الحرب، حرب 67، لم يعُد.

رحيمة تذرع الزقاق الضيق، روحة وجيئة.

- رحيم لم يعُد.

الاحتلال، أحصى السكان، هويات زرقاء.

رحيم بلا هوية، سالم بلا هوية.

لا تملُّ الانتظار، قمر يغيب، ترى المأوى الأخير، وقمرٌ يضيء، يعيد رحيم وسالم.

رحيم – ذيب

الخيوط السرية للفجر تتسلل رويدًا رويدًا.

لكنها تأتي.

رحيم- ذيب، ترك الجامعة.

رحيم في أحراش وأغوار الأردن.

رحيم يقاتل.

رحيم- ذيب.

هكذا أردته يا عبد الكريم؟!

مراسيل الخال سالم تأتي ببطء، لكنها تأتي.

شحيحة هي أخبار رحيم.

المرة الوحيدة والأخيرة، عاد سالم إلى عمّان. انتظر أيامًا قليلة قبل أن يلتقي رحيم.

كان رحيم يمكث أيامًا قليلة عند أصحاب قدامى لوالده في المخيم الملاصق للمدينة.

تردَّد سالم على تلك العائلة كل يوم.

التقى رحيم أخيرًا.

شعر أشعث، طويل ونحيل، وشارب أحمر رقيق.

- حبيبي رحيم، أخيرًا.

وبكى.

قضيا ليلةً ونهارًا.

غرفة في فندق شعبي وسط البلد.

- عارف يا خالي، أنت وحيد أمك.

ثم تابع وهو يزدرد ريقه:

- ما تزعل مني، حتى الجيش، الوحيد لا يأخذونه.

ثم وهو ينظر إلى بيوت، شجر وبشر، يشربون شايًا وقهوة ودخانًا، مساءً.

- إحنا لاجئين يا خالي.

ثم تابع وهو ينظر إلى البعيد:

- عارف، قبل سنوات، قبل الاحتلال، لا تذكُر، ربما.

حين هدم متظاهرون المخفر وسرق أحدهم بندقية، جعلونا نبحث في القرى المجاورة عنها.

نثرت عيناه دمعة:

- الجميع في بيوتهم، شرفاتهم، يشربون الشاي، ونحن نلهث ونُهان.

حتى وجدناه وسلمناه للشرطة.

هدأ سالم قليلًا، وتابع وهما يجلسان على مقهى شعبي وسط البلد:

- رحيمة، لا تملك جواز سفر.

كانت تودّ رؤيتك.

سأعود للكويت. إذا عدتَ إلى الجامعة، أنا تحت أمرك يا خال.

ودعني وبكى.

بيت آخر

منذ متى وأنا أبحث عنك.

لعلّي أجدك.

أستظل تحت شجرة التوت، ألهو وأغفو، ثم أواصل البحث!

تتعثر، تعثرَت كثيرًا، كلما اعتقدَت أنها وصلت، يخفت لهاثها، تجثو على العتبة.

تقول: لن أبكي.

ثم لا تجد نفسها، وتغفو.

رحيم لم يعد موجودًا.

كابوس.

رحيم لم يعد موجودًا.

كابوس.

لا تستطيع التواصل، التحدث معه.

رحيم، رحل.

جواز سفر

عمّـان، المخـيم، بيـت الأصـدقاء القـدامى، السـلط، المستوصـف، المجمع، الأغوار.

رحيم، تملكُ جوازًا للسفر.

رحيمة تبحث.

عرفت، رحيم-ذيب تسلَّل مرتين.

المرة الأولى إلى الأغوار الوسطى، الجفتلك.

استشهد رفاقه الخمسة، ونجا هو.

وعاد.

المرة الثانية، تسلَّل، المنطقة نفسها، لكنه لم يعُد.

لم يعُد.

قابلـت قائـد قاعدتـه، وصـف لهـا المكـان بدقـة، بعـد النهـر، صـحراء، بساتين، جبال، مزارع، الجفتلك.

- مئات الآلاف يتسلَّلون يا أمي، البعض يعود، والآخر لا يعود.

مزرعة نائية، اثنان، مهندس زراعي وابنته، مهندسة زراعية.

رحيم كان هناك.

ماذا ستفعلين يا أمي؟! ودّعها.

- رحيم، زهرة خريف.

همس بصوت خفيض.

عادت.

ثوبٌ أبيض، له عروق مطرزة، سروال أسود.

ومنديل، شاشة بيضاء تغطي شعرًا أبيض.

عيون وآذان، تبحث. أنف يشم.

رحيم – ذيب.

المزرعة

استدراج.. المهندس: خالد حنا نجار

استدرجتني، وقبلتُ أن أستدرَج، لكن إلى حد.

أخبرتها بالليلة التي بات بها –بدون سلاح– في بيت المزرعة، ولم تكن معه إلا ابنتي خالدة.

كانت رحيمة، وكلما تسنّى لها وقت ومساعدة، تأتي إلى المنطقة نفسها. مئات من المزارع والدوريات العسكرية. تسأل وتستقصي، لا تصل إلى جواب.

ولا يقودها حدسُها إلى مكان.

أمام هذه المزرعة، تمسمرت، دخلت وتجوَّلت بين الأشجار، والمشتل يمتدُّ أمامها. غموضٌ ما، رائحة، خيالات تشدها.

- عن ماذا تبحثين يا سيدتي؟
- لم ترد.
- دعيني أساعدك، سيدتي.

وقفت رحيمة، رفعت رأسها وحدَّقت في الرجل العجوز الهادئ.

- ما اسمك أنت؟!

ضحكَ:

- أنا من يسأل، يا سيدتي.

أنتِ في مزرعة تخصُّني، ما اسمك أنتِ وماذا تريدين؟

- اسمي رحيمة.

عاجلته بتلك الكلمة الوحيدة، شلال قوي من الماء.

انتفض الرجل، تراجع خطوتين.

- تفضلي، تفضلي سيدتي.

قادها إلى عريشة تعلوها دالية عنب.

مقعدان من البامبو.

- هل تجلسين؟

- من أنت؟

قالت رحيمة بحدّة.

لم يناور، كأنه وقع في أسر.

- أنا المهندس خالد حنّا نجّار. مهندس زراعي.

بدأ صدرها يعلو ويهبط.

- ولك ابنة، مهندسة زراعية.

شعر بأنه يستسلم، بلا سبب.

- كانت لي ابنة مهندسة زراعية، خالدة خالد حنا نجار.

هدأت رحيمة، تكوَّمت على مقعد البامبو.

- لم تجيبي من أنتِ، وعن ماذا تبحثين؟!

- أنا رحيمة، ذيبة. لاجئة، من مخيم بعيد.

ولدي رحيم.

توقَّفت عن الكلام.

انداحت الكلمات، قطرة قطرة..

- رحيم، ذيب.

اهتزَّ جسد رحيمة.

- رحيم، ذيب. أنتَ من أبحثُ عنه. أنت تعرف رحيم!

قاطعًا بأسىً:

- نعم أعرفه، سنوات طويلة خلت. لم أنسه كما لم أنسَ ابنتي خالدة.

المزرعة، إبريل، نيسان 1968..

مساءً، ظلّ مختبئًا خلف ثلاث شجرات من سرو.

ظلُّ المساءِ ساعدهُ في الاختباء.

قال في نفسه، لماذا لا أتحدَّث إليها.

متوسطة الطول، امتلاء جسدها قليل، مرنة، شعر أسود طويل، وجه طويل رائق ومحايد.

تغسل أشجارها، نباتاتها الخضراء والملوَّنة.

تتحدَّث بصمتٍ إلى تلك الكائنات المزروعة.

اثنان وثلاثون عامًا، بنطال رياضي خمري، خطّان أبيضان.

تفاجأت قليلًا بوجوده.

أخبرها بود، لو يبقى هنا هذه الليلة. كان منهكًا.

لاحظَت أن كتفه وذراعه الأيسر مربوط بقماش كاكي.

- يبدو أنك تُعاني.

أشارت إلى ذراعه الأيسر.

- نعم.

أخبرها من هو، طمئنها ضاحكًا وبقليل من الألم.

- حرث جمال، ولا نقطة دم.

لم تفهم. أخبرها أنه مصاب، لم يكن معه سلاح.

معركة قريبة من المزرعة، فقد دوريته، هرب.

جُرح بشظية في كتفه الأيسر، أوقف نزيفه ومشى.

لا نقطة دم تدلُّ على طريقه، كان يتعمَّد أن يسير على الحجارة والصخور، أو يمحو أثره إن مشى على التراب، يغير اتجاهاته كثيرًا.

- لن يعرفوا طريقي.

أدخلتهُ إلى البيت.

غيَّرت جرحه وانتزعت شظيَّة صغيرة من كتفه. عقَّمت بماء وملح وكحول ثم يود، وربطتها جيدًا.

حرقت الرباط السابق.

أخبرتني أنها تحيا وأباها في هذه المزرعة والبيت. كلاهما مهندس زراعي، يزرعان أشتالًا ويبيعانها إلى معارض في المدينة البعيدة.

أبوها في المدينة، أخذ أشتالًا إلى المعارض، سينام هذه الليلة هناك، صباحًا سيُحضر أدوية تخصُّني.

أخبرته أن جنود الدورية الإسرائيلية أحيانًا يأتون.

سينام تلك الليلة في هذه الغرفة، لكنْ عليه المغادرة فجرًا. لا تضمن متى يأتي جنود الدورية.

أعدت عشاءً دافئًا، عصير وحساء، وتحدَّثا.

اسمه رحيم ذيب. مهندس زراعي، ربما مستقبلًا مقاتل، لاجئ من مخيم، وحيد أمي.

تملك فيولين صغير.

- تملكُ بندقية، وأنا هذا سلاحي.

ضحكت. لاحظ شحوب وجهها، هالات سوداء تحت العينين، تعبٌ ولهاث.

بدأت تعزف على الفيولين برقة.

شعرَ باسترخاء ناعم وحميم.

- خالدة، لا أريد سقفًا، جدرانًا؛ نباتًا وأرضًا، أمدُّ جسدي، بيتًا ولا بيت.

ابتسمَت، شعرَت بنعاسه، قادته إلى الغرفة التي سينام بها.

- هل أسأل؟!

قال وهو يمدُّ جسده على السرير.

- تفضل.
- خالدة، تعانين من شيء؟

ابتسمت:

- نعم، صباحًا تغادر. أنا مريضة لوكيميا، أبي يحضر علاجًا كل بضعة أشهر. لا أدري، ينفع، لا ينفع.

غطتهُ.

- رحيم، لا تنسَ، تغادر فجرًا.

مضت إلى غرفتها.

- لا أدري إن كنا سنتقابل مرة أخرى.

همست.

حينما استيقظ رحيم فجرًا، كان مفزوعًا وقلقًا.

غرفتها مفتوحة قليلًا، كانت ممددة، شبه عارية على سريرها.

جسد متعب، وجه شاحب وابتسامة باهتة.

- وداعًا، خالدة.

قال همسًا وخرج.

حقل من اللوزيات، ومشتل.

مضى بعيدًا.

المزرعة.. مرة ثانية

رحيمة، المحامية اليهودية رومي لانجر.

شعرَ مهندس خالد بهدوء وهو يتحدَّث إليها.

كانت المحامية تودُّ أن تعلم متى كان رحيم في المزرعة.

خروجه، المعركة التي قُتل بها.

أخبرته أن هذه المعلومات ستقودها بشكل أو بآخر إلى رحيم، مأوى رحيم الأخير.

لم تمرَّ أشهرٌ قليلة.

خالدة، حبيبتي، كانت قد فارقت الحياة.

أخذتُ تصريحًا بدفنها في المزرعة، هناك، قريبًا من حاكورة اللوزيات. قبر ورخام، معرَّش، عريشة من أشجار ونباتات تحبُّها تُغطّي، كأنها خميلة.

أواخر أكتوبر.. بالضبط، 21 أكتوبر/ تشرين أول 1968.

كنت في المزرعة أجهز أشتالًا سآخذها غدًا فجرًا إلى معارض المدينة، ثم جلست أستريح أمام مدخل البيت.

لاحظتُ حركة، لم أعد أهتم.

فجأة، بداية العتمة، لم يكن هناك قمر، كان أمامي.

بدلة فوتيك عسكرية وبندقية آلية.

لم أفزعْ.

- لا تخف، أنا..

لم أدعْه يكمل.

- تفضل يا بني، ماذا تريد؟

- هل أجلس؟

لم ينتظر، جلس على مقعد البامبو أمامي، وبصوتٍ خفيض:

- أنا، رحيم، اسمي.

وقفتُ مذهولًا.

فزع رحيم من تصرّفي.

- أهلًا، أهلًا، رحيم، هه.. أهلًا ذيب.

استأنسَ بي.

- تعرفني؟

- نعم، نعم يا حبيبي.

أخبرته بما روته ابنتي خالدة عنه وزيارته.

- ليلة وحيدة يا رحيم، أخبرتني أنك شخص رقيق، أشعرتني أنها تميل إليك.

خالدة فارقت الحياة، ذهبت إلى السماوات قبل أشهرٍ قليلة.

أخذتُه إلى الخميلة، العريشة، هذا هو مأوى خالدة.

- تستطيع أن تقضي ليلتك هنا في العريشة، وتغادر فجرًا.

الدوريات الإسرائيلية نشطة، ويأتون دائمًا.

أحضرتُ طعامًا وعصيرًا له.

قبل أن أعود إلى البيت، نظر رحيم إلى وجهي:

- ابنتك جميلة، ورقيقة. خالدة لا تُنسى، لن تُنسى.

وأخبرني أنَّ له حلمًا، كان قد حدَّثَ خالدة عنه.

مكان صغير، في المزرعة. لم يتمنَّ بيتًا أو غرفة، فقط؛ مكانا صغيرا.

غادرَ فجرًا.

نهاية

لم أجده فجرًا، غادرَ.

كنتُ قد ملأت شاحنتي بأشتال زراعية، ونويتُ مغادرة المزرعة مع الفجر حتى لا تتأثر بالطقس، لنقلها إلى المدينة.

تحركتُ بسيارتي.

سمعتُ إطلاقًا كثيفًا للنار، ربما كان تدريبًا. مضيتُ بشاحنتي.

رصاص كثيف ثم صمت، صمت.

أقبل الجنود، أوقفوني جانبًا، أنزلوني.

بضعة أمتار، كانت ثلَّة من الجنود ببنادقهم، يلتفون حول جسد رجل مطروح على الأرض، أرض زراعية، مضرَّجًا بالدَّم.

على بعد أمتار قليلة، كانت بندقيته.

كان ينزف، جميع جسده ينزف، وجهه مغطىً بالدم.

عرفته، نعم عرفته.

رحيم، ذيب.

كان الجنود يركلونه ببساطيرهم، رأسه، صدره، بطنه، ما بين ساقيه.

رفع الضابط يده، أوقفوا ركلهم له.

عيناه كانتا شبه مغلقتين.

ربما لمحني، كان يُحتضَر.

تقدَّم الضابط نحوه، اعتقدتُ –وكنتُ مخطئًا في اعتقادي– أنه سيؤدي له تحية، كانوا يقولون ذلك.

لكنه تقدَّم ببطء، ركله بقسوة وضغينة، في بطنه، ما بين قدميه، صدره، ورأسه.

تراجعَ.

أتت سيارات إسعاف، نقلت جندًا جرحى وربما قتلى. لم ينقلوه، تركوه ينزف، ثمَّ جروه إلى سيارة عسكرية ورموه بها.

كان ميتًا.

لم أخبر رحيمة ببعض التفاصيل المؤلمة.

كنت كلما تحدثت عن بندقيته، عن جنود وجرحى، وربما قتلى، كانت تهذي: ذيب، ذيب.

حينما أخبرتها عن نزفه، موته، تدفقت دموعها:

– رحيم، رحيم.

همست.

رومي لانجر، المحامية اليهودية، حدَّدت اليوم، ليلة 21 أكتوبر/ تشرين الأول.

حددت المنطقة.

كانت تريد معلومات، طمأنتني أنها ستكون سرية.

مد يده ليصافح رحيمة، كانت عيناه مخضلَّتين بالدموع.

- سيدتي، يمرُّ طيفه كل جمعة عظيمة، في الفصح.

أراه، وأرى خالدة. أشعر بألم وغصة، لكني أنتظر دائمًا، سبتَ نورٍ؟!

- رحيم، خالدة.

زهرة خريف.

همسَ خالد حنّا نجار.

مأوى أخير

غربة، اغتراب، وحدة..

عزلة، مآل أخير..

بيت، يبحث عن بيت؟!

أحضر المحامي، ضابط المخابرات العسكرية السابق، هايدر لانجر، لوحة الاسم.

رحيم عبد الكريم الشيخ فؤاد.

الاسم الحركي: ذيب.

- هذا بيته الأول.

أشارت رحيمة إلى أسفل بطنها والحوض، أبوه عبد الكريم، لا مأوى له.

اختاروا ليلة مظلمة، بلا قمر.

الخامس من أكتوبر/ تشرين الأول، 1994.

أقلتهم سيارة جيب، مسافات طويلة، شوارع جبلية ضيقة.

وصلوا ليلًا إلى المقبرة، تلة منبسطة.

دخل ثلاثتهم، المحامية رومي، وهايدر، ورحيمة.

شواهد حديدية صغيرة وأرقام.

تقدم هايدر لانجر ببطء، ثم وقف.

أشار بيده، شاهدة حديدية، «2393».

هذا هو، رحيم، ذيب.

تحت ثوبها الأبيض المعرّق بنباتات ملونة، تحمل رحيمة «كريكًا» فولاذيًّا بلا يد.

أخبرهم هايدر لانجر أن الدفن كان سطحيًّا.

جثَت رحيمة على ركبتيها، وبدون توقُّع منهم، أخرجَت «الكريك» الفولاذيّ وأخذت تحثو التُّراب عن القبر.

لم يُعلِّقا.

ظهرت جُمجمةٌ، عظم الكتفين والذِّراعين، الحوض والسَّاقين.

توقَّفَت.

شهقت رحيمة.. لم تبكِ.

انحنت على الجمجمة، قبّلَت الجبين، الرَّأس.

أخذت تتأمَّل الهيكلَ العظميَّ، تحت ضوء شاحب من مصباحٍ صغيرٍ تحمله المحامية رومي لانجر.

حاولَتْ الوقوف، لم تستطع..

ساعدتها المحامية على الوقوف.

تمتمت المحامية:

- زهرة خريف.

لم يسمعها أحد.

- غطّيه، غطّيه يا رحيمة. غطّيه يا أمي.

أخذت رحيمة «الكريك» الصغير، أهالت التراب مرة أخرى على الهيكل العظمي.

كانت عتمة.

نظرت رحيمة إلى أفق مظلم بعيد لم يبدده مصباح رومي لانجر الخافت.

القمر كان غائبًا.

تمتمت المحامية لانجر:

- زهرة خريف.

ملذات شفيق غانم الشهير بـ«شقروق»

هناك محطة.

نقف على المحطة، ننتظر، حافلة.

تأتي، تتأخر، ربما لا تأتي.

نهايات خريف، بعده شتاء ثقيل، ربما.

أشياء سرية، وغير سرية، تدفعني إلى مصالحة.

مصالحة خريف، تفاهم مع شتاء.

البداية، تقبَّلَت نفسي ذلك، لاحقًا تذمُّرٌ خفي.

أتفهّمه، لا أقمعه.

أنت حزين، حزين فقط.

طيران، ارتفاع منخفض، توقُّفٌ لالتقاط حبوب متناثرة.

حزين، حزين فقط..

تصعد، أعلى الجبل.

تهبط، قاع المدينة.

ملذّات، مسرّات، تتلمَّظ، تبكي؟!

أنت لا.

- فرج، فرج...

اقترب رجلٌ سمينٌ، أشعث الشعر، ملابسه متهدلة، لكنه لا يكفُّ عن الابتسام.

- فرج، فرج، أين أنت؟

صامتًا، لا يستمع، يجلس على المقعد المعدني البارد.

قام الشاب السمين بلمس كتفه، ثم هزَّها بلطف:

- فرج..

لم يلتفت فرج إلى مصدر الصوت، تشنَّجت رقبته ورأسه قليلًا، لامست يد الشاب.

- شفيق، شفيق، شقروق، أهلًا.

- صوته هادئ، يتماوج، تسمع بضع كلمات ولا تأتي الأخرى.

وقفت الحافلة العجوز أمام المحطة.

وقع فرج، مد يده اليمنى يتحسَّس طريقه إلى الحافلة.

أخذه شفيق من ذراعه وصعد به، أجلسَه على المقعد الثاني.

- سأراك، سأراك قريبًا.

قال شفيق على درج الحافلة.

- وسط البلد، هه، لن أعود، ربما أيام أو أسابيع. نلتقي، شقروق.

نزل شفيق، قدمه اليسرى تهتزُّ، فيهتزُّ جسده بالكامل.

تحركت الحافلة العجوز إلى وسط المدينة، تحسَّس فرَج صدره، بطنه، معطفه الأزرق السميك، وابتسم.

شبح المحطة

لي مكان، يتَّسع جسدي النَّاحل، في قاع المدينة، أي مدينة..

فقدت البصر في العاشرة، انفصلت الشبكية، حادث صاخب، ما بين المخيم ومدينة أخرى.

الأرض، انفجارات متتالية بمغارة مليئة بالمتفجرات، كنتُ موجودًا في الجوار.

السماء، صاعقة ضربت غابة الجبل.

قليلًا قليلًا.. فقدتُ البصر، خلال أشهُرٍ بتٌّ أعمى.

في مستشفى فيكتوريا للعيون، قال الأطباء:

- لا أمل، «Sever Retinal Detachment»، انفصال كامل في الشبكية لكلا العينين.

بتٌّ أعمى.

أنهيتُ أربع سنوات دراسية في مدرسة الوكالة.

ما بين وحدتنا في المخيم وساحة صغيرة قضيت أوقاتي. أصدقاء المدرسة يأتون، يقرؤون لي دروسهم، اللغة العربية، العلوم، الرياضيات، الشِّعر، وحتى اللغة الإنجليزية.

كبرنا معًا، أستوعب ما أستطيعه.

تأخذني قدماي إلى الساحة، ألعب وحيدًا حتى أتعب. أتحسَّس طريقي إلى وحدتنا، يأتي المساء ويأتي أصدقاء المدرسة.

الألم العميق، لا ضجة له، ينزف ببطء وتعالٍ..

شفيق الأعرج، شفيق غانم، شقروق.. أعرفه مذ كان طفلًا، مراهقًا وشابًا كبيرًا.

أشمُّ رائحته، حركته، صوته الطيَّب، العادي.

تمرُّ أيام وربما أشهُر، لا نلتقي، لكنَّه يجدني على المحطة. مرات قليلة يصادفني في قاع المدينة جالسًا، نأكل شيئًا معًا، أو نائمًا ليلًا في أحد الشوارع الجانبية قريبًا من الأدراج..

- فرج، فرج.. أنت شبح، مثل شبح، لا أدري متى تظهر ومتى تختفي.

مساء دافئ ليلة باردة

كنا نجلس بجانب شجرة جذعها ضخم، كثيرة الجذور، تمتدُّ خارج بطن الأرض.

تبدو لي مثل بيانو.. أبصرتُ مرةً بيانو قبل أن أفقد بصري.

تعلَّمتُ العزف وأنا غير مبصر، أيامًا قليلة، أو أسابيع..

اهتمَّت بي وبعزفي سيِّدة من المدينة، السيدة سامية.

كانت كالشبح، كما أنت، واختفت.

لا أدري، رائحة العطر، وصوتها الرقيق، وأصابع تتلمَّس أصابعي.. اختفت.

هذه الليلة كانت إلى جانبي، حكيتُ لها حكاياتي القديمة، لا أدري.. قالت لي، حكاياتك غير حقيقية.

أخبرتها أن الحكايات زادي.

قالت: أعرف.

فجأة، شعرتُ بأني ضائع.. هكذا، ضائع بلا طريق.

قلت وأنا أرتجف.

- كل هذه الحياة الطويلة الواسعة، الضيقة، نصفان، جزءان..

أوله، كنت أعتقد أنني أعرف ما أريد، أحدِّده، لكنَّه كذب، يبدو كذبًا.

والآن، لا أعرف ما أريد.

همشري، ضائع، لا أعرف ما أريد.

نثرت عيناي دموعًا حائرة، أجهشتُ في بكاءٍ صامت، وأجهشَت هي في بكاءٍ صامت، لكنها تواصلت مع جذور جذع الشجرة وبدأت تختفي، تختفي وتتسرب..

شفيق الأعرج

ماذا تفعل يا شفيق، شقروق، الآن..

تذهب إلى السوق، ليكُن، تمشي متمهّلًا..

- الحياة، منحة الصُّدفة، لكنها مؤقَّتة..

ذكَرَها لي أكثر من مرة، صديق المحطة، فرج الأعمى.

بدايةً، لم يصل إليَّ المعنى، لم أهتم.

كبرتُ، بدأتُ أتحسَّس المعنى.

- هذا فرج، خبير الحياة.

لا أعرف قريبًا لي، فقط جدتي لأمّي، وأمّي.

لا أذكر أبي، ربما كنت في السنوات الثلاث الأولى، هاجرَ بحرًا إلى فنزويلا؛ بلدٌ نفطيٌّ وغنيّ.

كان صعبًا عليه الهجرة إلى الولايات المتحدة.

تقول جدَّتي، انقطعت أخباره تمامًا، سنينَ..

أمّي صغيرة وجميلة.

- بدنا نعيش، لازم نعيش.

تقدّمَ لها صاحبُ دكان يكبرها بسنوات. وافقت جدَّتي وأمي.

طلبت جدَّتي منه أن يرفع قضيَّة في المحاكم الشرعية للطلاق، غيبة وضرر، على حسابه، وقد كان..

تزوَّجها وبقيتُ أنا مع جدَّتي بناءً على طلبه.

بعد سنوات قليلة طُلِّقت أمي، سنوات عشر أو أكثر، تزوَّجَت أمي، لا أذكر، ربما أربع مرات.

خرجَت بطفلين وقليل من المتاع. كانت علاقاتها تنتهي بالطلاق أو الموت، عادت إلى وحدة جدّتي.

أصابتني حمى وأنا طفل، أخذوني إلى طبيب الوكالة، أيامًا قليلة وتبينت إصابتي بشلل أطفال، قدمي اليسرى، تظلُّ تعرج حتى النهاية.

الأعرج، شفيق الأعرج، أول ألقابي في الحارة، لا في البيت.

جدتي كانت تسمّيني شقروق، كثير الابتسام والضحك.

عرفت الحارة هذا الاسم، شفيق غانم، ما بين الأعرج، وشقروق.

تركتُ المدرسة مبكّرًا، دفعتني جدتي:

- تعلّم صنعة، حِرفة! تأكل منها ونأكل معك، أنا وأمّك وأخويك الصغيرين.

قالت جدتي.

- حاضر..

أقرب الأجوبة إلى لساني وقلبي.

عملتُ في مركز لتصليح ماكينات الخياطة.

أشهرًا مضت، لم أتقن شيئًا، ثم مُساعدًا لنجّار، ولم أتقن شيئًا.

لم أرغب العمل في ورشات تصليح السيارات.

كبرتُ..

- شقروق، أنت لا تتقن إلا الابتسام والضحك.

قالت جدتي.

- هـه.. هنـاك وعـد بـأن تعمـل مُراسـلًا في شـركة، موظـف، ستصـبح موظفًا يا شقروق.

قالت جدتي.

كنتُ قد توغلت في العشرينات من العمر، تبوُّلٌ كثير، جوع وعطش..

شخصه طبيب الوكالة، سكريّ، سكريّ كِبار.

- تتحمّى، تأخذ دواءك وتُتابع..

تابعت جدتي بعد أن ناولتني طبقًا به رز وحليب:

- أنت مطيع وبسيط وضحوك، على بركة الله يا شقروق. ليس لي إلا أن أوافق.

في المـرات القليلـة التـي كنـت أزور فيهـا أمـي، وعلـى مضـض منهـا، وبسبب أو بدون، أتلقّى لطمة ثم لطمة، على الوجه، الرقبة.

ابتسامة بائسة، لا بكاء.

أن تمنع البكاء، بأيّ طريقة.

- ليش هذا السمين الأعرج هون؟!

ثم لطمة ولطمة، باليد، القدم، أو بأي شيء آخر..

الأم، الجدة، تحاول الحماية بشيء من الخوف والخشية والمجاراة.

هؤلاء أزواج أمي، عُتاة الحارة، الأكبر عمرًا، وبعض من عملتُ تحت إمرتهم.

الابتسامة، الابتسامة، وأنت تبكي، لكن وجهك ملامحه تشتدُّ، تتشنَّج ثم ترتخي.

ابتسامة صفراء، لا أكثر.

قالت جدتي: أنت شقروق.

وأنا دائم الابتسام: شقروق.

ملهى Red Cave

عملت في شركة مقاولات صغيرة مراسلًا، كنتُ مطيعًا في كل شيء، لي راتب شهري.

- الحياة، بقايا من ملذّات، مُتَع ومسرّات، بلا ملاذ، بلا ملاذ، تشرّد.

قال صديق المحطة، فرج الأعمى.

هو فيلسوف، فيلسوف حقيقي.

آخر راتب شهري، أبقيت معي نقودًا قليلة، طلبتُ من فتحي أن يأخذني معه حيث يعمل نادلًا في ملهى ليلي Red Cave.

- معي نقود قليلة.

وافقَ فتحي، ليلة خميس لكنْ بشروط، حدود المشروبات الروحية والمزّات، وعدم التحدّث مع الزبائن أو بنات الملهى.

أخبرني أنه سيهرّب لي بعضًا من كؤوس المشروب والمزّات.

- ستدفعُ نقودًا قليلة.
- أعرف الوضع يا شفيق.

قال فتحي.

- ستصير أذني حمراء، هه.

قال شفيق.

- كل الألوان يا شقروق.

ضحك فتحي.

امتلأ الحمّام الصغير ألوانًا وعُصارات وقيئًا رطبًا انتشرت رائحتهُ في المكان.

نام شفيق، كطفل في بطن أمه، على السطح البارد للحمّام، غثيان لا يقدر عليه، إعياء، عدم قدرة على الحركة، كل شيء يدور، يدور.

- ماذا فعلتُ في حياتي حتى أحضرك معي يا شقروق!؟

قال فتحي متجهّمًا ومتأفّفًا.

- سامحني فتحي، سامحني.

جرّهُ من يديه وقدميه ثم رافعًا رأسه، إلى مخزن قديم للحاجيات.

- ستبقى هنا، لم يعد هناك وقت، سآخذك إلى بيتكم.. توبة، توبة يا شفيق..

حملني في سيارة أجرة ووضعني أمام الوحدة السكنية لجدَّتي.

بدأت أشعر بشيء من الانتعاش، ألقيتُ نفسي على الأرض.

- أين كنت يا شفيق، وشارب خمرة!

قالت الجدة وهي تفرك عينيها.

- أنا تعبان، تعبان ستّي..

غطّتني.

- طيب، نام، والصباح رباح.

ثم قالت بصوت هامس:

- بدك تتعشى؟

- هو في عشا أصلًا..

ورحتُ في إغفاءة، غيبوبة صغيرة.

- صباح القهر، يا شقروق.

تابعت وهي تقدم رغيفًا به شيء من الزعتر.

- كم دينارًا صرفتَ يا شفيق؟

وقفت اللقمة في زوره.

- بعدين، بعدين يا ستّي، أنا مقهور، مقهور، حرام يعني ليلة!؟

نثرت عيناه دمعتين:

- ما أنا قائم فيكم يا ستي، أمي وأبناءها من أزواجها.. بعدين، بعدين يا ستّي.

- شفيق، أنت مش لحالك مقهور.

تحدثت الجدة بحسرة ثم ابتسمت.

راحت تدغدغه من تحت إبطيه وخاصرته، ضحكَ، وابتسم:

- بس كانت ليلة، آخ، يا ستي..

عملٌ حـــر

لم يكن صعبًا على مسؤول صغير في شركة المقاولات.

- شفيق، أنت إنسان طيب.

ابتسم شفيق:

- شكرًا.

تابع المسؤول:

- اذهب إلى المحاسبة، سيعطونك مستحقاتك كاملة.

فوجئ شفيق:

- بس..

لم يدعه يكمل:

- الشركة ليست في حاجة لك، شكرًا..

تحرّكَ شفيق، واجهَ المُحاسب، أعطاه نقوده.

- تعرفُ لماذا؟

قال شفيق وهو يبتسم.

- لا شيء، لا شيء.

ثم بصوت غير مسموع:

- همّتكَ قليلة.

عاد إلى جدته، تقبلت الأمرَ بهدوء على غير المتوقع.

- ليس لك إلا العمل الحُر.

قالت.

خرج إلى الحارة، الشارع.

الشارع يُعلِّم.

بعد مراقبة، مشاركة، اختارَ جمع العُلب، علب المشروبات الغازية وغيرها، يطبّقها بحجر أو بقدمه اليمنى، ثم يضعها في كيس، هكذا تأخذ حيزًا أقلّ. هناك وسيط يشتري الأكياس ويورّدُها إلى مصنع، وهناك نقود، تقلّ أو تزيد، ليكُن.

هناك أقراص فلافل ساخنة، علبة فول، بندورة، قلاية بندورة من جدتي، أرغفة ساخنة، بقايا مشروب غازي في علبة، وقطعة صغيرة من سمسمية. بذخ، ملذات، لا يمكن مقاومتها، قد لا تأتي دائمًا أو كاملة، لكنها تأتي، اليوم أو غدًا.

أصول العمل الحر، ودفء الملذات الصغيرة.

حصكور

على المحطة يقف فرج الأعمى، أشعر مرةً بأنه صديق، ومرة خالي! نعم خالي، يكبرني عمرًا، لا يلوم ولا يُخَطِّئ أحدًا، يتفرج على الدنيا فُرجة الأعمى.

لكزتُهُ في كتفه، وبدون أن يوجه نظره نحوي:

- شفيق، آخ يا شقروق.

جلسنا على المقعد الحديدي البارد، أخبرته عن الملهى وما حدث، وطردي من العمل، والعمل الحُر.

ضحكَ فرج:

- عملٌ حر، ممتاز، لا تحتاج إلى أحد، ولا أحد يأمرك، هه، عمل حر.

قال فرج وهو يضحك.

- تهزأ يا خال؟

قال شفيق بصوت حنون.

- خال، صحيح، أنا مثل خالك. شفيق، عانيتُ الكثير، ولا أريد أن أفسد بهجة صباحك هذا، هه، لقبك شقروق، ولقبي «حصكور».

قال فرج وهو يتحسَّس المقعد الحديدي وفراغاته.

- هه، حصكور، حصكور، يعني؟!

خالي فرج:

- لا أعرف، ممكن تعيس مزمن، هه. مثلك يا شفيق، رغم فارق العمر.

ثم تابع:

- أقول لك، قُبض عليّ أكثر من مرة مساءً، أكون جالسا على الطريق، متاعي بجانبي، أحدهم يضع منشورات سرية إلى جانبي، تكتشفه الشرطة، ثم دور تأهيلي، ضرب وضرب، ثم يكتشفون أني أعمى متشرّد.

والثانية، سرقة، أحدهم سرق حقيبة من سيدة وهرب، حين حوصِر رماها إلى جانبي، تأهيل آخر، ضرب وضرب.. تأتي السيدة: لا، ليس هو.

ويطلقون سراح فرج الأعمى.

يضحك ويتابع:

- هم طيّبون قليلًا، كنت أحصل على سندويتش وعلبة عصير، منيح.

ابتسم شفيق، ثم ضحك، كأنه يبكي.

- أنت حصكور، حصكور يا خال.

وقف فرج الأعمى فجأة، سمع صوت الحافلة المتجهة إلى وسط البلد..

- شقروق، الحياة، بقايا من ملذات ومُتع، مسرات أحيانًا خائبة، لكن بلا ملاذ، بلا ملاذ، تشرُّد.

ملاذ غير آمن

اختفى ليلة، لم يعُد شفيق.

بحثت عنه جدته، وبدرجةٍ أقل، أمّه.

في المستشفيات، العيادات العامة، المشرحة، ثم المخافر.

وجدوه أخيرًا، ألم، كدمات تملأ جسده، ازرقاق في جبينه، تورم في عينيه، وابتسامة حزينة، شقروق.

- لم يفعل شيئًا ولا يستطيع، أعرج ومُصاب بالسكري، مسكين، حزلوط!

تبوّلَ على نفسه أكثر من مرة، رائحة نتنة ونفّاذة.

- ذهبتُ لأتفرّج، كنتُ أتفرج.

المظاهرات والاعتصامات تملأ المكان، وجدَ فرصة لجمع العلب المعدنية الفارغة، و.. ويتفرج.

حين هرب من في الميدان وتقدَّمت الشرطة، هرب معهم، لكنَّ قدمه، حركته، لم تساعده، قُبِض عليه.

معظم علبه كانت ملأى بالبول، واحدة فقط بها بنزين، زجاجية.

اعتقدت الشرطة أنها زجاجة مولوتوف.

- يا بيك، شفيق مسكين، أمه تاركته، وأبوه ضاع في الغربة، لم يتقن ولا أظنه سيتقن حرفة، على باب الله، يوم بيوم.

تيقنَ الضابط من رجاء الجدة.

- سيخرج، سيخرج يا حجّة، هناك إجراءات بسيطة ويخرج..

ابتهجت الجدَّة وهي تتحسَّس جسد حفيدها.

- تريد شيئًا، شفيق؟

- ساندويتش فلافل.

بلع ريقه:

- بالشطّة، بالشطّة يا ستّي.

حينما خرج، تعافى من الكدمات، تناول طعامًا ساخنًا، عاد إلى عمله، يبحث في الحاويات عن علبٍ معدنية.

مساءً، أخذ حمّامًا، ارتدى ملابس نظيفة وخرج.

نسمة تشرين، يبتسم، يبتسم، يضحك.

قطط، عصافير، كلاب ضالّة وبشَر.

كانت ابتسامة صفراء، لا أكثر.

أمام الضابط وعسكره، المسألة مختلفة قليلًا، لكنه القهر والازدراء..

ملذّات ومآلات

جالسًا على المقعد الحديدي، فرج الأعمى، تكوّمَ شفيق إلى جانبه، ظلّا صامتين.

- عملت عملية جراحية يا خال.

تحدَّث شفيق بصوت هادئ.

- عملية، ماذا حدث؟ على العموم غبتَ عني طويلًا.

أجاب فرج.

- قطعوا قدمي، بها غرغرينا، أنا منيح الآن.

تحدَّث شفيق بحزن.

فوجئ فرج:

- قطعوها!؟ أوف! أي قدم، اليمنى أم اليسرى؟

قال فرج متسائلًا.

- اليمنى، ليست المشلولة، مع عصا أتكئ عليها، وضعوا قدمًا خشبية بديلة.

سادَ صمتٌ.

- خال، هل أرافقك؟

سأل شفيق.

- أهلًا بك، ولمَ لا؟

أجاب فرج.

- خال، جدتي توفّيت، وأمّي تزوَّجت مرّة أخرى، استولت على الوحدة السكنية هي وزوجها وولداها.

تحدث شفيق بانكسار.

- تعال، هه، تعال، شقروق.

تحدثَ فرج بدفء ممسكًا بذراع شفيق، ثم تابع:

- كالغجر، لا يجب أن نتعلق بأبنائنا وبناتنا، لأننا نحبهم، دعهم يذهبون ويحيون.

توقف فرج، انتصبَ واقفًا ومتأبطًا ذراع شفيق:

- لهذا لم أتزوج. شقروق، أنا الأعمى، أحاول استحضار اللون الأبيض، لا شيء غيره يمكن أن يجعلك تستعيد لذة عابرة، مسرّة، ملاذًا، يجعلك تغفو، تنسى القهر والازدراء.

جلسا متجاورين في الحافلة التي ستقلّهما إلى وسط البلد.

- شقروق، فكرت يومًا أن أتزوج أمك، هي في عمري، أو جدتك! فكرتُ في ملاذ، سقف وطعام، هه.. هه.

تناغم الاثنان في ضحكٍ متصل.

- خال، أحسن أنك لم تتزوج.

تابع شفيق:

- أقول لك، نظرت مرة عبر شباك غرفة سمية، تعرفها، مومس، قريبة من سكن جدَّتي.
- ماذا تريد يا شفيق؟

قالت سمية بدلال.

- أدخل؟

ضحكت سمية:

- معك نقود؟
- لا، ليس معي نقود، خلّيها دَينا.

ضحكت: انصرف، آخ منك يا أعرج.

انفجر الاثنان، ضحكٌ متواصل.

- لذة، لذة أن تعيش وتتمتع حواسك بالطبيعة، النسيم، تبحث عن لذة ممكنة، فقط، ممكنة.

تحدث فرج الأعمى، تحسس شعر شفيق بحنو، ثم تابع وهو يتحدَّث إلى نفسه:

- الغبار يتراكم، يتراكم.
- إلى أين نحن ذاهبون يا خال؟

زعق شفيق.

- إلى مآلاتنا، مآلاتنا، يا بني، شقروق.

صحبة وأنا معهم أهل الهوى يا ليل

أرق

ليل يتساوى مع نهار، ساعات، دقائق، ثوانٍ، لا تعني ولا تعِد بشيء. أرقٌ طويل، طويل.

كدتُ أن أنهار، اثنتان وسبعون ساعةً وأكثر.

لا نوم، لا استيقاظ. جسدي قطعةٌ من الخشب الصلب والجاف. مشروبات أعشاب دافئة، حليب بارد، أقراص مهدئة، بلا معنى.

جاء صوتٌ خافت من بعيد.

كأني، بدون أن أدري، هجرتُ نفسي.

اجتاحني أرقٌ.

لا أسباب ولا معنى.

وقفتُ على شرفة شقتي، بدأت أغني، أهذي. فرحٌ بلا معنىً ولا أساس.

«أهل الهوى، يا ليل.. (كان الوقتُ نهارًا)

فاتوا مضاجعهم، واتجمَّعوا صحبة، يا ليل وأنا معهم».

متثاقلًا نحو سريري، وقعتُ مغشيًّا عليّ مرتطمًا، بلا صوت.

كوّة (1)

كنتُ أنظر من كوّتَين، أو أكثر.

أعيد الامتحانات النهائية، لا أدري أي امتحانات، مدرسية، المعهد، الجامعة؟!

وأتوه، لا أجد المكان، مكان الامتحان.

يحاولون مساعدتي، يدلونني على المكان، لكني أتأخر. يعاودون مساعدتي.

أعيدُ الدراسة، مثابرًا، أنال أكثر من شهادة، نفس الشهادة، لكنها تتكرَّر.

أتقلّب متصلبًا إلى الجهة الأخرى، وأستغرق في نومٍ عميق.

كوّة (2)

لا أجد الطريق، أو الحافلة لتقلّني.

أتخيَّلُها أحيانًا.

أهرول من أعلى الجبال إلى وديان وسهول.

أنا وصديق، نقفز من علوّ، إلى تحت.

نبحث عن الطريق.

الطريق، إلى أين.

أتقلَّب في نومي.

ضوء أصفر، لكنه يفتح طريقًا.

بيوت صغيرة، وحدات متناثرة من غُرف.

بعضها ملتصق، بعضها منفرد، أشجار ناحلة، وسلاسل أحجار صغيرة، لا ترتبك، لا ترتبك.

تمضي مبتهجًا قليلًا.

فرحٌ إذن، لا، لا تتعجل.

طرقٌ طويلة منحنية، متعرجة، وشمس تبدو باهتة من بعيد، أخالها قمرًا صغيرًا يحطُّ على الأرض.

قمرٌ أصفر، ألهث، أتقدَّم، أتحسَّس نباتات بلا لون، من حولي، خروش، خروش، أقطف واحدة، أقربها من فمي، تنتفض دمعتان، أتوقَّف.

عاد الليل يجثم على المكان والزمن.

نجم يلمع، صحيح، نجم يلمع، الشمس الباهتة تلاشت، والقمر الصغير اختفى.

نجم يلمع، هيه.

كومة إسمنتية، غرفة كبيرة، بلا نوافذ.

عتمة، نجم يلمع يشق الباب. أمدّ يدي، ربما تلسعك أفعى، هيه، أفعى.

نجم يضيء، أظافر يدي اليمنى تغرز في كتل دبقة. أُخرج يدي.

تمرٌ، تمرٌ دبق.

يدي اليسرى تحمل خروشة، واليمنى، تغرز أظافري بتمر دبق.

جائع، لكنَّ طعامي، صيدي، لا يصل إلى فمي.

النجم اللامع، يختفي، فجأة يختفي.

مقهى

- مهدي.. مهدي.

كنا نظن أنك لن تأتي.

صرخ عامر الخلعي مبتهجًا، ثم تابع بهدوء:

- أين اختفيت! ثم لماذا تتأخر؟!

- لكني أتيت.

قال مهدي وهو يمسح بيديه شعره وجبينه.

وجدَ مكانًا متوسطًا بين الأصدقاء، منتظرًا أن يأتيه النادل بالشاي الساخن.

قال عامر الخلعي ذات مساء، مثل فيلسوف:

- مهدي، انظر.

أنت عاشق أزليّ.

تابعَ وهو يقرقر من نارجيلته:

- الهوى، طريق شغفك، لكن قصصك لا تنجح، أتمنى أن تنجح ولو واحدة، لكنها لا تنجح.

تسلّقَت عينا مهدي طرقًا بعيدة، تبدو بلا نهاية، لكنها تصطدم بحائط المقهى. نظر إلى مجموعة أصدقائه، كانوا قد تناولوا كؤوسًا من خمور قديمة، في بارٍ قريب، ثم تناولوا سندويشات فلافل.

تحلّقوا في زاوية المقهى البعيدة.

كان عامر الخلعي يلفُّ زجاجة خمر في جريدة:

- مهدي، لك في كأس؟

- لا، فقط شاي ساخن.

صرخ عامر:

- نحن أهل هوى، أهل الهوى.

يبدو أنه سكر حتى المنتهى.

ثم وهو يقرقر من نارجيلته راح يغني:

«أهل الهوى يا ليل، فاتوا مضاجعهم».

تلاه عبد الله وعلي وعبد الهادي:

«واتجمّعوا صحبة»..

انتشى مهدي بالشاي الساخن، حشر صوته معهم:

«صحبة.. يا ليل..

صحبة وأنا معهم».

انتابه ضحك متنقل ومقلقل، اهتزَّ كرشه وصدره، وخدّاه الكبيران، وشعره، ثم راح في ضحكة هستيرية، ونثرت عيناه دمعتين، لا أكثر.

ســـــــرّك في بير

عامر الخُلعي، مدرس الأحياء، سنوات طويلة.

عاشق مدمن، الحياة، نباتاتها وحيواناتها، طيورها و.. وإناثها.

الحياة، مياه، تراب، نار، هواء، وأنثى.

- هكذا تكلم زرادشت.

يضحك:

- أنثى وأنثى وأنثى وأنثى.

هكذا تكلّم ولم يتلعثم، عامر الخلعي.

تزوج مرة وحيدة، مهندسة معمارية، ناريمان.

أنجبا بنتًا، نيرمينا.

علاقة فاترة وجامدة.

لم يتقبَّل هكذا علاقة منذ البداية، مخالفة لطبيعته، لكنه تدريجيًّا استكان، ثم ابتعَد.

لم ينفصلا، عاش كلٌّ منهما في مدينة.

طبائع مختلفة، قوانين للحياة، من أول النهار حتى نهار اليوم الذي يليه.

استيقاظ، فطور، خروج وعودة، نوع الطعام، زيارات اجتماعية، نوعية الحديث، الاختلاط في الآخرين، من يزور البيت، من لا يزوره، مواعيد

دخـول البيـت والخـروج، النظافـة وأصـولها، الإيـواء إلـى السـرير، متـى وكيف، وحتى علاقتهما الحميمة، متى وكيف.

تبدو مرتاحة، لكن عامر في وادٍ آخر.

حاول في البداية التوافق والتوفيق، بلا فائدة. لم ينفجر.

أخبرها أنه لم يعد الإنسان الذي يريد.

لم تُجب.

واصَلَت حياتها، وأجبرته على ذلك النمط من الحياة المرتبة والرتيبة.

تمرّدَ.

- أنتَ حشرة.

علاقة وصلت حد الكسر، كسرٍ لم يتوقعه.

قالت لي ذات مساء:

- اسمع، أنت حشرة.

شدّدَت في نطقها على كل حرف.

لم يغضب. شيءٌ ما انزوى عميقًا في داخله.

غادرت وغادرَ المكان.

أخذت الطفلة نيرمينا معها.

عاش كُلٌّ في مدينة، انفصلا بلا ورقة طلاق.

لم تدُم أحزانه، أيامًا معدودة.

بحثَ في بئر أغانيه القديمة عن أغنية.

«أنت حشرة».

لم يجد سوى أغنية:

ما هو أنت اللي جبته لروحك.. يا قلبي.

تنوعت علاقاته، أغلبها مع عاهرات، بائعات هوى، لم تكن لتدوم.

التدريس، الطلاب، شقته، والمقهى.

هكذا كان يومه، فوضى لا متناهية، غرفة نومه، الصالون، المطبخ، كل شيء متناثر هنا وهناك، وراديو قديم ومسجلة. يبعث أشجى أغانٍ من زمن مضى.

لم يكترث يومًا لتلك الفوضى التي يحياها.

علاقة وحيدة، تعثَّرت في البداية.

ثم رويدًا رويدًا أخذت طابع الاستقرار النسبي.

ملَك، تعمل في الدعارة: نحيلة، شعر أسود فاحم، عينان عسليتان، هادئة الطباع. تسكن في مدينة مجاورة، منطقة شعبية، أسرة كبيرة، أختان اثنتان، وثلاثة إخوة، تعليم متوسط، أب متوفى، وأم شبه مُقعَدة. الجميع يعمل، تحت سقف بيت متهالك وحيد.

صِلات ليست وثيقة.

تعرّفَ عامر عليها ليلًا في قاع المدينة.

ذهبَت معه إلى شقته وتناولا عشاءً، أعدّهُ هو.

أخبرَته أن الوقت متأخر، وطلبت منه المبيت.

وافقَ عامر. صباح اليوم التالي، جهّزَ إفطارًا بسيطًا، لم يتحدّثا.

غادر شقته إلى عمله في المدرسة.

حينما عاد لم يجد ملَك.

لكنه لم يفقد شيئًا من ممتلكات بيته، هذا إن كانت هناك ممتلكات.

شكا من حرقة في البول وإفرازات خضراء. ذهب إلى الطبيب، أجرى تحاليل.

- أنت مصاب بالتعقيبة (سيلان)، مرض جنسي، سيد عامر.

قال الطبيب.

- أجريت لك فحوصًا أخرى لأمراض جنسية، لكن، الحمد لله.

علاج

مرّ أسبوع، أثناء عودته من سهرة مع الأصدقاء، لمحَ كائنًا يلوذ بالدرَج المؤدي إلى باب الشقة. كان يتحرك.

اعتقدَ أنه قطة أو كلب متشرد.

حين اقترَب، وقفَت نحيلة، ذابلة.

- مساء الخير، آسفة.

- ملك، تعالي.

دخلا الشقة.

- انتظرتكِ طويلًا.

أعدّ لها عشاءً.

نامت على سرير في الصالة، غفت بسرعة. تأملها دقائق.

ذهب إلى غرفته، واستغرق في نومٍ عميق.

ملك حبيب، لاجئة من يافا، والدها متوفىً منذ سنوات. أمٌ مُقعَدة، ثلاثة إخوة وأختان.

الكبير له بسطة خضار في المخيم القريب، يذهب فجرًا إلى الحسبة، ويعود ليلًا إلى البيت. الآخر يعمل في ورشة ميكانيكا سيارات، يخرج صباحًا ويعود ليلًا. والصغير يعمل مع سائق ثلاجة كبيرة، مساعدا متنقلًا بين موانئ ومدن مختلفة لدول الجوار، يعود للبيت كلما سنحت فرصة.

البيت، قديم متهالك. غرفتان كبيرتان وصالة، حمام ومطبخ.

ثلاثة ذكور يحتلون غرفة.

الأم المُقعدة تنام في زاوية الصالة، بينما البنات يشغلن الغرفة الأخرى.

الكبرى تعمل في مشغل للخياطة بأجر زهيد وعمل طويل. الصغرى تعمل في حضانة للأطفال، صباحًا، وعاملة نظافة للبيوت، بحسب الطلب، مساءً.

وملك هي الوسطى، عملت لفترة في مشغل الخياطة ثم تركته غير آسفة.

استيقظ عامر مبكرًا، أعدَّ إفطارًا: بيضًا، جبنة، فولًا وحمصًا، زيتًا وزعترًا، شايًا ساخنًا.

شعرَت ملك بخجل.

أفطرا معًا، صامتين.

أحضر لها علبتين من دواء.

تحدَّثَ بدون انقطاع، محاولًا أن يكون صارمًا ودافئًا في نفس الوقت.

- شقتي الصغيرة، هذا مفتاحها، تأتين متى شئتِ. لكن لا أحد آخر يأتي، هاه.

ثم لا تسأليني عن حياتي، أبدًا.

أنتِ مصابة بمرض جنسي، سيلان، لا شيء آخر.

هذا علاجك.

نظرت إليه بخجل:

- لكن..

تابع عامر:

- حاولي ملك، هناك أمراض أكثر خطورة، هناك واقٍ..

احمرّت وجنتاها:

- أعلم، لكن..

قاطعها عامر مرة أخرى:

- لكن، لا بأس.

- لماذا تفعل..

قالت ملك متلعثمة.

قاطعها عامر:

- لا تسألي، أرجوك لا تسألي.

ثم وهو يبتسم:

- أنتِ لستِ موسى ولا أنا الخِضر.

ضحك:

- لا تسألي.

ثم خرج إلى عمله في المدرسة.

في سهراته المسائية، لم يخبر أحدًا من أصدقائه، ربما تحدثَ عابرًا إلى مهدي، لم يعلّق مهدي.

تحدثَت عن طفولتها، مراهقتها، وفقر مزمن.

كأنها تستحثه أن يتحدث عن حياته، طفولته، شبابه، زوجته.

مرة وحيدة أخبرها أنه وزوجته ناريمان انفصلا، لا طلاق ورقي. وأن له ابنة، نيرمينا.

لم يرها منذ سنين خلت.

- هي في عمرك يا ملك.

سألَتهُ عن سبب الانفصال.

ضحكَ في براءة:

- قالت لي، إني، إني، لنقُل، إني فراشة.

- جميل، الفراشة جميلة، وأنت فراشة ملونة.

قالت ملك في براءة.

- لكني لست فراشة، يا ملك. شوفي، الفراشة حشرة، هاه. أقصد أنا حشرة.

قال متلعثمًا من أعماقه.

- لا..، أنت فراشة.

انتفض عامر فجأة:

- ملك، ألم نتفق لا حديث عن حياتي؟!

خرج إلى المقهى مساءً.

بدأ عامر يلاحظ أن خروجها أصبح مُقِلًا، لم يسأل. وحتى ذهابها إلى بيتها أيضًا.

ذات مساء، عاد مبكرًا إلى شقته. وجدها قد أعدّت عشاءً، جلسا إلى طاولة المطبخ.

بدأت بتناول الطعام، جلس عامر ساكنًا.

سألَت:

- تناولتَ عشاءً في الخارج؟

لكنَّ صمتًا ساد.

توقفَت عن تناول الطعام.

نظر عامر إليها بشكل مباشر:

- ملك، اسمعي. أودّ أن أتحدث إليك بشيء، لنقُل سؤال.

نظرت ملك إليه باهتمام.

- لا أريد جوابًا عنه الآن. لنقُل، عشرة أيام، لا إجابة قبل ذلك ولا أسئلة.

ثم تابع بهدوء:

- أريد أن أتزوجك، نعم أتزوجك. هل توافقين؟ لن أسمع منك الآن، لنقل عشرة أيام.

استأذنَ وخرج، ذهب مرة أخرى إلى المقهى حيث الأصدقاء.

مرّت عشرة أيام بطيئة، ربما تركت شقته أيامًا قليلة، ذهبت إلى بيتها، حارتها، وعادت.

كانا يتأمّلان بعضهما بعضا، ثرثرة بسيطة وراديو ومسجلة ترسل أغانيه القديمة.

مساء اليوم العاشر، جلسا إلى طاولة المطبخ.

بساطة في الأناقة والماكياج.

تناولا رشفات من الشاي الساخن.

- الآن، ملك، أود أن أسمع.

قال عامر بهدوء.

- مهما تكن الإجابة، هل سنبقى معًا هنا، أقصد الشقة؟

قالت بتلعثم.

- أكيد، مَلَك، مهما تكُن الإجابة.

تابعت مَلَك بتلعثم:

- ولن تسألني عن السبب؟

- ولن أسألك عن السبب يا ملك.

ردد عامر خلفها.

- أستاذ عامر، أنت..

قاطعها عامر بهدوء:

- ملك، تكلمي بوضوح، لا داعي..

- أستاذ عامر، أنا يسعدني أن.. لكن.. أنا غير موافقة، لا أريد الزواج منك.

سكتت.

سكنت حركاتها وحركاته، لم يحرك ساكنًا، وقف، ومسح على شعرها ووجهها.

- على العموم شكرًا، شكرًا لك على صراحتك.

وقفت ونظرت إليه بحنان:

- لن.. تطردني من..

قاطعها عامر:

- يا مجنونة، أنتِ صاحبة منزل، تبقين كما تشائين.

خرج إلى المقهى، أصدقاؤه ينتظرونه.

متعلقات سفر

- هؤلاء مجانين، هه، أنتم مجانين، تشبهون الغجَر.

تحدَّث عامر بصوت مرتفع.

خرج صوت عبد الله غالي من ركنه المنزوي:

- مجانين، مجانين يا عامر، ومهدي شيخنا.

شيخ نوَر.

ابتسامة رقيقة، افترَّت عنها شفتا عبد الله غالي، أسنانه البيضاء، ذلك النحيل الأسود، ذابل العينين.

- أنا لستُ سودانيًّا، ربما جذوري من هناك.

عبد الله غالي، عاشق علم الفيزياء. أكمل دراسته بتفوق في الجامعة، وتعرّف على ياسمين فرج، زميلته في دراسة الفيزياء، عاشقة مثله لعلوم الفيزياء.

وجه أبيض مبتسم، شعر كستنائي قصير، وضحكات قصيرة تغطي فراغًا بين كلمات لا تستطيع البوح بها.

حكاية عشق خاصة، بها شيء من الجدية.

زملاء الفيزياء، كاكاو وحليب، علَّق آخر ذو ميول يسارية، نوع من العنصرية.

لكن عامر الخلعي قال:

- لا داعي للتعقيد، مشهد إنساني جميل، كاكاو وحليب.

تزوجا بسرعة، كانا يطمحان لإنهاء دراستهما في الخارج، لكنَّ ظروف العمل والحياة لم تكُن مواتية.

حياة منظمة ومرتبة ودقيقة، ابتاعا شقة صغيرة، وسيارة صغيرة، وكانا متعاونين في تسديد الأقساط.

طفلة جميلة، ياسمينة. جمال ياسمين وطيبة عبد الله، ذكاء ورقَّة.

عازفة بيانو منذ الصغر، اهتما كثيرًا بتربيتها.

عشقَت الفيزياء، علمًا وحياة.

براعة في عزف البيانو مع معلمتها الأوكرانية، انتقلت من طور إلى آخر في العزف.

وكان لها –رغم ثمنه المرتفع– بيانو في الشقة الصغيرة.

أنهت الدراسة الثانوية بتفوق، لم تخترْ الطب أو الهندسة رغم أن مجموعها كان يسمح، العلوم والفيزياء.

نجحت بتفوق، حصلت على منحة لدراسة الدكتوراة في الولايات المتحدة، ساعدتها درجات التفوق، وتزكية العميد والأساتذة في الجامعة.

سافرت وحيدة، قوية، للدراسة.

بقي عبد الله وياسمين وحيدين، وكانت اتصالات أسبوعية منتظمة مع ياسمينة. تفوقت، والمنحة باتت من جزئية إلى منحة كاملة.

سنوات قليلة وصعبة، ناقشت رسالة الدكتوراة في الفيزياء النووية وتفوَّقت، وحجزت مقعدًا للتدريس في الجامعة التي تخرَّجت فيها، وجاء موعد التخرج.

قدم عبد الله وياسمين أوراقهما للسفارة، حصلت ياسمين على فيزا، وتعثر عبد الله في الحصول على الفيزا.

لا بأس، سافرت ياسمين وحيدة.

- صوّري كل شيء، وثّقي كل شيء، المنزل الذي كانت تقيم به، الجامعة، أماكن المحاضرات، أساتذتها، المقاهي، والمطاعم الصغيرة التي ترتادها، الشوارع والغابات الصغيرة، كل شيء، حبيبتي ياسمين.

أخذت ياسمين كاميرا صغيرة، وبدأت توثّق منذ لحظة وصولها.

المنزل الصغير، الشوارع المحيطة، السناجب، البيوت القديمة، محطة الحافلات، النهر الصغير، الغابات المحيطة والمطاعم الصغيرة.

صالة الاحتفالات الكبرى، وحفلة التخرج والتكريم، الأصدقاء والصديقات، بل وتطفَّلت تسألها عن حبيب.

انتهت حفلة التخرج، ياسمينة في الإنعاش، ياسمين في الإنعاش. وسيارة محطَّمة بالكامل.

لم تنجُ ياسمينة.

كانت قد خربشت على ورقة صغيرة، رغبتها في حالة موتها أن تحرق وأن يضعوا رمادها في وعاء زجاجي صغير، كانت قد قرأت عن وصية للكاتب العظيم إدوارد سعيد.

ولم يدر بخلدها ذلك الموت السريع.

لم تمكث ياسمين أكثر من ساعات قليلة.

عرفت موت ياسمينة ووصيتها، وقبل أن تغيب اختارت وصية ياسمينة.

وقد كان.

وعاءان زجاجيان، ياسمين وياسمينة.

اتصلت به وزارة الخارجية، ثم سفارة الولايات المتحدة، اعتقدَ أن الوضع خطير.

وصل بعد أسبوع، صدمة، دورقان زجاجيان.

رماد ياسمين، رماد ياسمينة.

ملابسهما وأشياؤهما، ملابس التخرج والتخريج، ياسمين وياسمينة، ملطخة بالدم.

لم يأخذ شيئًا من المتعلقات.

فقط صور وكاميرا وشهادة ابنته، ودورقان زجاجيان، وعاد.

في الصالون، أصيصان: ياسمينة بيضاء، وياسمينة صفراء إلى جانب دورقين زجاجيين.

يرعاهما يوميًّا، إلى جانبهما صورة ياسمين وصورة ياسمينة.
يبتدأ نهاره وينتهي بهما.

نافذة صغيرة

ريهام، ابنة خالته، قصيرة، مرحة وسريعة الحركة.

جمعت بينهما قصة حب مراهقة.

عمل عبد الهادي مدرّسًا لفترة في عمّان، اشترى شقة صغيرة في إربد، قريبًا من بيت خالته.

تزوَّج سريعًا، ثم كان فريد، الابن الأول والأخير، بدت عليه منذ طفولته الأولى علامات شرود، حركة مبالغ فيها، ثم تطورت إلى عدائية، تلعثم في الكلام، وشبه تخلّف، لكن نموه الجسدي كان غير عادي. ما إن بلغ المراهقة، شعر غزير يملأ جسده، وجهه وشاربيه، عينان جاحظتان. استعانا بأطباء أمراض عصبية ونفسية، مهدئات ومهدئات لا أكثر.

هذا العملاق، لا بد أن يخترق مساحة الشقة الصغيرة.

اكتشاف متأخر وتدريجي، ريهام، زوجته وابنة خالته مصابة بنوع من العُصاب، شراسة وعدوانية، ثم هدوء وسكون قاتل. أدوية للسيطرة على الحالة وعدم تطورها.

الصبر، الصبر.

هذا ما قالته أمه والخالة.

أخذ عبد الهادي يقضي معظم أوقاته خارج البيت.

التطور الأخير والتدريجي، فريد، ابنه العملاق يعنفه بل ويضربه. فوجئ أولًا، لكن فريد مارس العنف والضرب معه ومع ريهام.

الصبر، الصبر.

ما تقوله الخالة.

ضع المزيد من المهدئات. وقد كان.

تطور آخر.

العملاق، وقصيرة القامة، وكأن حلفًا متناغمًا بلا اتفاق.

يُحشر في غرفة، يُذلُّ ويُعنّف.

طلبا نقلًا إلى عمان، استأجر غرفة صغيرة، يقيم معها طيلة الأسبوع، أو أكثر. يؤمن الأدوية ويأخذ نصيبًا من التعنيف، ويعود إلى غرفته.

هناء، نافذة صغيرة، أطلَّ منها على مربع حرية صغير، لكنه يكفي.

أرملة، تسكن قريبًا من غرفته، تقيم مع ثلاثة من الأبناء، بنتين وولد، مع عائلتها. راتب تقاعدي لها ولزوجها المتوفى.

تزوجا سرًا، يلتقيان خلسة في غرفته، أو في مقهى بعيد. أبقيا العلاقة سرية وخاصة.

- ذلك أضمن لاستمرارها.

نافذة صغيرة على مربع حرية.

ولا تفقد راتب التقاعد لزوجها المتوفى.

لا مشاكل من أسرتها أو أسرته.

نافذة صغيرة، له، لها؟!

ورقة في مهب الريح

خريف

علي، الأكثر وسامة ورشاقة، كأنه نجم من نجوم السينما العالمية، شعر أسود طويل وشاربان أشقران مرسومان، وعينان عسليتان. يمشي في خيلاء، وابتسامة لا تفارق شفتيه.

عاشق، كأنه خلق ليكون عاشقًا.

علاقاته قصيرة ومتعددة، صادق، مخلص ومستقيم، لكن العلاقات تذوي بسرعة.

لكنَّ علاقتين أخذتا دفة في حياته، تقودانه مثل قارب صيد في محيط هائج.

سامية، فتاة أرستقراطية، جميلة، متناسقة الجسد، وممتلئة قليلًا، شعر أحمر، عينان بنيتان، تظنها راقصة فلامينغو صاخبة.

تعرف عليها، كانا يخرجان كل مساء.

تطورت العلاقة، صارحها برغبته في الزواج منها، لكنها ترددت.

يقول عامر الخلعي، صديقه الحميم، إن إشاعات كثيرة كانت تتردد عن علاقات متعددة لها، وإنه نصح صديقه علي بالابتعاد، لكن علي أصرّ على الاستمرار في العلاقة والزواج منها.

إصرارها وترددها في الموافقة على الزواج جعله يسألها عن علاقة ما، وبكل بساطة أخبرته أنها علاقة وحيدة تربطها بصديق.

كان علي هادئًا وطيبًا.

أخبرتهُ أنها ستنهي علاقته بها.

يقول عامر، ذهبتُ أنا وعلي وسامية، استأذنَت وأخبرته أنها ستخبر صديقها بانتهاء علاقته بها.

انتظر عامر وعلي حوالي الساعة.

جاءت هادئة، انتهت علاقتها بذلك الشاب، يدعى منير.

أسابيع مضت، وأصرت سامية على عدم الارتباط به. تقول إن الارتباط يُقيد، وهي تكره القيود، يا إلهي.

تدريجيًّا انتهت العلاقة.

يقول عامر الخلعي، كانت تربطني بمنير علاقة من بعيد، عرفتُ بعد أشهر ما يبعث على الاشمئزاز.

قال منير له: إنهما (يقصد هو وسامية) مارسا الجنس، وأنتما بانتظارهما في الشارع القريب من شقته. لم يتحدث عامر بذلك لأحد.

مرت سنتان قبل أن يتعرف علي على فتاة من أصول يونانية تدعى سوسن، قصة حب عنيفة، ثم زواج. أنجبت ولدين: ماجد ووليد.

كانت تعمل مُدرّسة فنون في مدرسة خاصة. استمرت العلاقة أكثر من أربعة وعشرين عامًا.

كبر الولدان، ماجد ووليد، والتحقا بالجامعة في كندا. بدأت العلاقة العاطفية بالجفاف. سوسن وعلي.

لكنه أدرك أن الجفاف ومنذ سنوات من طرفها هي، حافظ كل منهما على حياته وعالمه الخاص.

لم يخطر بباله البتة ما حدث.

كانت عودة غير متوقعة إلى شقته، صباحًا.

كانت سوسن في إجازة، ويفترض أنه كان مشتركًا في دورة تدريب طويلة ولساعة متأخرة.

عاد إلى شقته في العاشرة صباحًا، سلة ورد وشيء من الحلوى.

دلف إلى شقته بكل هدوء.

الصالة، وضع أشياءه على الطاولة.

سمع صوتًا هادئًا، توجه إلى غرفة النوم، كان الباب مفتوحًا، سوسن وصديق لها عاريان تمامًا.

لم ينتبها في البداية، نقرة على الباب.

عيونهما التقت.

غطى صديقها وجهه، لكن سوسن، نظرت اليه بتحدٍ وكأنها تسأل: ماذا تريد!

توقف كل شيء في داخله، اعتصرته مرارة قديمة وجديدة.

- لا شيء.

قالت نظراته.

سأل، محاولًا تصنع البرود:

- منذ متى، هل لي أن أعرف؟

- أكثر من عشرين عامًا، يكفي.

مضى.

انفصلا،

ولم يعرف ماجد ووليد بما حدث.

خيمة أبو العلاء المعري

تأمل عامر الخلعي وجه مهدي طويلًا ثم نطق:

- مهدي، أنت، أنت أبو العلاء. أبو العلاء المعري.

- هه، المعري.

تمتم مهدي.

- نعم، المعري.

ثم تابع:

- نعم، ترى كل شيء، كل شيء.

ثم وهو يحكُّ أرنبة أنفه:

- لكنك لا ترى أي شيء.

لم يكترث مهدي بما يقوله عامر.

واصل تحديقه في الحائط، ثم وهو يحدّث نفسه:

جمال الحياة، تفاصيلها، تبدّد العبث.

اقترب عامر من مهدي:

- هناك من يسأل عنك.

تجاهل مهدي تلك العبارة.

- ترسل لك دائمًا تحياتها، وتسأل عن أخبارك.

زميلة في المدرسة، صديقة قديمة، سماح سعادة.

انتفض مهدي، رفع يده وكأنه يقول لا تكمل.

أول قصة حب، الجامعة، كلية الآداب.

سماح الناصر.

صديقان لا يفترقان، في الجامعة، الطرق، الكافتيريا، المكتبة، الحافلة، وحتى شوارع قاع المدينة، المناسبات والأعياد. عرفا الكثير عن بعضهما بعضًا.

قبل التخرج، أخبرها بحقيقة مشاعره.

هو يحبُّها.

استمعت سماح مبتسمة له حتى النهاية، كانت رقيقة.

اتسعت ابتسامتها، ونظرت مباشرة إلى وجه مهدي.

- مهدي، أنت صديق، صديق قريب، لكن..

تعثرت قليلًا ثم تابعت:

- - لا عاطفة، أقصد عاطفة أنثى تجاه رجل. أنت تفهمني، تفهمني، مهدي.

ثم ابتعدت تدريجيًّا، نلتقي، نتحدث قليلًا، ثم افترقنا.

خمس علاقات عاطفية، كانت تنتهي بزواج.

لم ينجب، كان يترك العصمة بيد كل واحدة. تنفصل بهدوء وتمضي.

أختي سمر عانت كثيرًا، كانت تعمل مدرسة وأيضًا تعمل في البيت. أنجبت بنتًا وولدًا.

زوجها أناني، شرقي الطباع، شرس، لاقت عذابًا على يديه قبل أن يطلِّقها.

اضطُّرَّت وأبي أن يتخليا عن حقوقها ودفعا مالًا مقابل أن يترك لها الابن والابنة معها.

وغد.

رضا، الفتاة السمينة، جالا، سميحة، وعد، وأخيرًا عبير.

كانت تصغره بخمس عشرة سنة، تزوجا لأشهر.

تركَتهُ، وقررت السفر إلى دُبي، عقد عمل، وعلاقة ما.

أرسلت له ورقة انفصالها.

قرأها بتمعن، ثم مضى إلى عمله؛ المدرسة، ومساءً إلى المقهى.

مكث وحيدًا، أصدقاؤه، أصحابه، أهل الهوى.

قال عامر الخلعي ما بين ضحك وجد، روحه المتهكمة دائمًا تغلب:

- لن أخجل، ناريمان قالت عني إني حشرة، حشرة.

وماله، الحشرة كائن جميل.

ممكن فراشة.

ثم ضحك ضحكة مكسورة.

- أما ملك، فقد تزوجت، صديقا حبيبا قديما؛ ميكانيكيا من حارتهم.

تركت الشقة.

ثم تابع محاولًا أن يبدد حزنًا:

- أنا، أنا وحيد، مهدي، وأنتم أصحابي.
- مهدي، هذا هو رقم تلفونها الخاص.

مطار على الطريق السريع

صديقتي القديمة، السيدة سماح سعادة.

تزوجت مرة واحدة، أنجبت ابنة، دالية.

تزوجت دالية وهاجرت إلى أستراليا. سماح وزوجها انفصلا، هاجر هو أيضًا إلى نيوزلندا، حياة جديدة. ولمَ لا؟!

تحدث مهدي إلى نفسه، ثم تحدث إليها.

تحدد يوم للمقابلة، اختارته هي.

ذهب بأناقته البسيطة.

مساء جميل، وحديث كأن لم ينقطع منذ سنوات.

عشاء في مطعم شعبي، حمص، فول وفلافل.

ثم تجوال، تجوال بطيء وذكريات.

أخبرها أنه ما زال يكن لها شعورًا أكثر من صداقة.

ضحكت، حدثته عن حياتها، حدثها عن حياته. شعر بنشوة، أخبرته أنه ما زال أفضل صديق حميم لها.

- صديق حقيقي، ربما كان من الممكن أن نتزوج، لكن، أنت صديق.

كانت في غاية الأناقة والبساطة.

يقف ويتأملها، يغرف من شيء يفتقده. وقفت فجأة، طلبت منه طلبًا، وافق دون أن يسأل.

ذهب بسيارته القديمة إلى شقتها.

نزل الحارس بحقيبتين، ثم طلبت منه أن يوصلها إلى المطار.

لم يفهم شيئًا، ربما كان متوجسًا.

سعادة على طرف، وتشاؤم على طرف آخر.

أمام المطار، أخبرته أنها مسافرة إلى أستراليا حيث تعيش ابنتها.

فوجئ، لكنه تماسك.

- يعني زيارة لابنتك.

قال مهدي.

- نعم، زيارة، و.. وهجرة.

وافقوا على طلب الهجرة، هجرتي إلى أستراليا.

عاد إلى صمته.

وضعت قبلة على خده الأيمن السمين، ومضت.

رن تلفونه، كان عامر الخلعي يسأل:

- أمورك، تمام، مهدي، هاه، أقول مبروك؟
- تملي في قلبي يا حبيبي، وأنا عايش غريب عنك، تملي ولا أنت داري بي، أنا بشكي إليك منك.

كان مهدي يغني أغنية للمغني محمد فوزي.

قال عامر:

- نلتقي في المقهى، مساءً.

- أين، أين أنتم؟ في مقهى الرشيد، أنا قادم، قادم.

أجاب عامر:

- الجميع بانتظارك، عبد الله أبو سمرة، عبد الهادي وعلي.
- نعم، عامر، من فضلك، قطعة كبيرة من الكنافة وكأسا من الشاي، بدون سكر، بدون سكر.

فمه ولسانه وحلقه كان يقطر مرارة.

عالم قديم

ظل الوردة

صرخة،
أعلى سلسلة من الجبال،
تجاه الوادي السحيق،
دوَّت.
تابع الصدى،
بين أشواك ونباتات متشابكة أمام المغارة، مدخل المغارة،
دوَّت.
تابع الصدى،
بئر سحيق، قديم. في قاعه بقايا مياه.
دوَّت ثم دوَّت.
تلجلج الصوت والصدى.
على النهر، ظهرًا، الشمس تحرق.
دوت في الداخل شهقة، وصدىً لم يسمعه أحد.
المدينة المتلألئة مساءً.
نسمة الغروب، حزن الغربة،
انبثق من الأعماق، مثل شلال من دم.
ثم تراجع، تراجع.

الصدى، انساب ببطء، حتى توقَّف.
تلوذ بشارع، زقاق، لا أحد.
تزعق، نافثًا صوتًا، ليوقظ (الأحد).
ولا ينفذ.
ذات ظهيرة، لا تئز إلا الحشرات.
تتحرك عيدان ذابلة بين الحين والآخر.
يتبعثر الوقت.
يتبعثر أوراقًا صغيرة، غير ملونة.
ثم لا تجد الأوراق، ولا حفيفها.
المشي على غير هدىً.
الانتظار بلا توقّع.
الليلة التي لا تنتهي، ولا فجر.
لا فجر.

وردة الصباح

- أنت، أنت.

إلى أين أنت ذاهب.

لم يرد.

واصل سيره الحثيث،

كأنه ركبَ صدىً،

أو شعاع ضوء.

- إلى هناك.

- أين؟

لم يجب.

واقفًا كان،

تراه، تلمحه،

يبتعد، يقترب،

ويختفي.

عالم قديم.

إذا هاجمك القهر والإحباط، لا تستجب.

هكذا إذن، أنت تقهره، تحبطه.

فجرًا،

تجلس على المقعد، وحيدًا،

لا تراقب شيئًا.

لعلك تتوه.

برد وصقيع، طفل يقف منحنيًا خارج الباب الخشبي للغرفة، تتلو نغمات صوت عميق وبعيد.

- إلى أن جاء هادم اللذات، ومفرق الجماعات، آه، مولاي.

ظِــلّ

ليلى الصغيرة.
ليلى،
ليلى،
ليلى،
ليلى،
ليلى.
أكثر من خمسة أصوات، تنادي.
ليلى الصغيرة، تركض.
بلا توقف.
جسد، أقدام صغيرة، تقطع الشارع.
سيارات قليلة تتوقَّف.
ليلى، تصل إلى الجانب الآخر من الشارع،
تدخل الحديقة، تركض،
بلا توقف.

وردة العالم

عن ماذا تبحث، أيها التائه؟!
غيوم متراكمة،
هل ترى شيئًا؟! حاول، مرة ومرة،
مرات.
حاول.
لعل الغيوم تنشق،
يظهر ما خفيَ أو اختفى.
تتعثر الخطى، وما الذي لا يتعثر.
امشِ، لا تقف.
أنت لا تتقن الحركة الدؤوبة.
تتساءل، متى تصل؟! أين تصل.
لا تقبض على شيء.
لن تصل.
لا يهم، متى ولا أين.
لا تهن، واصل الحركة، واصل.
ظلام أو نهار.
سفينة، ثم سفينة، متوالية سفن.
بحار لا تهدأ، أبدًا لا تهدأ.

لا أحد ينتظر،
تمر سفينة،
كأنها لم تمر.
صور باهتة، بلا معالم واضحة.
لا تقفز، لا تقفز.
السفينة تمر، عوائق تغيّر مسارها،
لكنها تمر، تمرّ.
لا تقفز.
العتمة تخبئ نهارًا،
يأتي بعد ظل، ظِلال.
يأتي.
أنت منهك، يأتي بعد قليل،
لكن، لا تقفز،
لا تقفز.
لا تسأل أين الاتجاه.
السؤال غير مُجدٍ.
لا تسأل الريح، العواصف،
السؤال غير مُجدٍ.
تمسَّك بشيء، تمسَّك، كي لا تقع، فقط.

قارب، مركب، باخرة، سفينة.
هي سفينة، ثم سفن.
متوالية سفن، تحمل بشَرًا،
صور باهتة.
مجرد صور باهتة.

عالم قديم

فراق

خمسة، أخوالي الثلاثة، عمي وأبي.
اكترى كلٌّ منهم حمارًا.
ذهبوا إلى المدينة.
المدينة على شاطئ البحر.
ياسين، سعادة، فضل، أخوالي.
عمي دنون، وأبي وجيه.
مُرّة، أمي.
وجدتي لأُمي، حلوة.
ريحٌ لا تأخذ إلى البحر،
ركائبهم تلوذ ليلًا بالجبال والوديان،
ولا تشرق شمس البحر.
غروب، فقط.
لم نجد شيئًا يغطي، يقي.
هكذا حسبناها.
مدن وقرى جبلية، برد وصقيع.
مناطق غورانية، دافئة طيلة السنة، أشهر الصيف لا تطاق.

يمكننا معالجة ذلك، لكن لن نتجمد، فكّر خالي ياسين.

صيفًا،

ظلٌّ ما يكفي.

شمس الشتاء،

نباتات وورد، تعطر الحياة.

نقتات ثمارًا، بذورًا في الفضلات.

قال خالي ياسين، متجهًا إلى الأغوار، تبعه أخوالي.

الجبال، الوديان والسهول القريبة، باردة، لكنها ليست بعيدة عن البحر.

الغيبة لن تطول.

قال عمي دنون وتبعه أبي.

مخيم الأغوار، ومخيم الجبل والوديان.

وغاص كلٌّ منهما في التيه.

تجوال

لا أبحث عن شيء،
أتجوّل، بي روح الشباب الأول،
شوارع لا تقود إلى هدف،
ثم كانت إلى جانبي،
نتبادل النظرات، الابتسامات المقتضبة ونمضي.
تسبقني أحيانًا، وتتجاهل رفقتي معها.
تبحث عن شيء ما.
ربما لا أدركه، أو لست على عجلة أن أعرفه.
الجبل، شوارعه، أزقته، تتسع قليلًا ثم تضيق.
أناس يتجولون، تغطيهم طبقات من غبار وأتربة.
دلفتُ إلى زقاق، غاية في الضيق.
بناء قديم، هرم.
شخصان، ثلاثة، هم ثلاثة.
امرأة ورجلان من كبار السن.
ينتظرون.
دخلتُ إلى بهو المبنى،
بقيت أتسلّى مع الثلاثة،
يأتون إلى المبنى، يبحثون عن نقاء وسلام لأنفسهم المتعبة.

تحدثوا معي،
عمري، مهنتي، وأجبتُ بلا اكتراث.
تحدثوا عن تجربتهم في المكان.
كأنهم يشجعونني على الولوج في التجربة.
لم أكن متشجّعًا، لكني كنت أسايرهم.

دخلتُ أبحث عنها، ليلى.
وجدتها تجلس بين الكثيرين.
تستمع، ربما إلى موعظة.
جلست قليلًا، قبل أن يصيبني ضجر.
خرجت هي، تبعتها إلى مبنىً مجاور، أكثر قِدَمًا.
دخلَتْ وغابَتْ داخل المبنى.
المبنى القديم، يطلُّ من حافة الجبل على المدينة.
انتظرت ربع ساعة أو أكثر.
دخلتُ إلى المبنى، كثير الأروقة الضيقة.
شعرها يتهدَّل على وجهها، تشعر براحة وطمأنينة، سألت.
ابتسمت، ابتسامة غامضة،
لم تتحدَّث.
أعطتني ورقة صغيرة،

حزينة جدًّا وتعيسة، البارحة كانت ليلة صعبة وبشعة.

حلمت بك، شفتك، لأني ما فكرت بأحد، غيرك.

يا، يا ملاكي الجميل.

أمسكت بيدها، وقبل أن تمضي، أدرت جسدها بالكامل نحوي، حاولت تقبيلها، امتنعَت.

حدقت في عينيها، عين مشعة، واليسرى مطفأة.

تراجعت أنا.

مضينا،

طريق، أعلى الجبل الشاهق،

مضينا.

ربما.

معابد قديمة.

كنائس مسيحية.

لا أدري.

تبحث عن سلام، راحة لنفسها المتعبة.

ليلى.

عشاء أخيـــر

مستلقية على سرير خشبي متهالك.
إلى جانبي، أبدو مطفأ الوجه والعينين.
تتسلّقني منامة ممزقة، قديمة.
شعري أشعث.
ستكون المرة الأخيرة التي تزورني بها، ليلى.
علاقة لم تستمر لأيام معدودة، لم تصل إلى شهر.
لا أدري.
دقَّت ليلى، على خزانة خشبية قديمة متربة، داخلي.
اعتقدت أنني سأنجو.
الأتربة والرماد، تسلَّل إلى وجهي، أنفي، عيوني. ابتعدت كثيرًا، كثيرًا.
حاولت أن أقترب، شوق، حميمية.
حاولت.
لا يخرج من الخزانة القديمة المتربة إلا رماد، رماد.
فتاة رشيقة، شقراء، قصيرة الشعر، بيضاء الوجه، ابتسامة جاذبة.
اقتربنا، وابتعدنا.
كنت أحدق بها، كلما التقينا، تبتسم.
تعابير وجهي لا تشي بشيء.

تلك الليلة، لم تكن تعلم، وربما أنا لم أكن أعلم أنها تكون الأخيرة.

أحضرت وعاءً كبيرًا ملفوفًا ببطانية سوداء.

- طعامٌ ساخن.

قالت.

- هل تأكل؟

أشحت بوجهي:

- لا.

داعبتني على السرير الخشبي، حميمية، شغف.

لم أخرج من الخزانة، لم أستجب.

شعرت بنوع من اليأس.

ابتسمت.

- عيني اليسرى مطفأة.

نظرتُ إلى وجهها، رائقة وساحرة.

لم أميز بين عينيها اليمنى واليسرى.

كانت عارية تمامًا،

وكنت ما زلت أحتفظ بمنامتي الممزَّقة والقذرة.

أخرجت بأصابعها الصغيرة عينًا زجاجية من حجر عينها اليسرى.

ابتسامة صغيرة صفراء

ليلى أضحت أكثر عريًا.

- هذه عيني اليسرى.

لم أُعلّق.

خطيبي، زوجي، ابن عمي. أطلقَ رصاصة مترددة، متهورة، كأنه يهدّدني، شظية ذهبت بعيني اليسرى.

أطبق صمتٌ علينا.

- لكني حرة، كنتُ حرة، سأظل حرة.

أعادت عينها الزجاجية إلى المحجر الأيسر.

عبثت بشعري بيدها اليمنى.

- نورالدين.

همست.

- ما اسم أمك؟

- مُرّة.

خرجت من فم ولسان متحطِّب.

- صحيح.

قالت.

- نعم، وجدَّتي اسمها حلوة.

تنفست الإجابة.

جلست.

ربما شعرت أن باب الخزانة القديم سيفتح، ولم تشأ.

وكأنها لا تريدني أن أكمل.

انسلَّت عارية من السرير،

ارتدَت كامل ملابسها.

لم أرَها، وربما لم أرَ أحدًا بهذه الكآبة والحزن.

- سأترك لك طعامًا ساخنًا، هه.

مشت خطوات نحو الباب.

التفت، ثم عادت وانحنت. قبَّلتني في فمي.

- نورالدين، تعلم أني أحبُّك، لكنّي حرة، سأظلُّ حرة.

مضت بسرعة نحو الباب الخارجي، لم تلتفت إلى الخلف.

خرجت وصفقت الباب من خلفها بقوة.

بقيت صامتًا، ربما عشر دقائق.

قاومت، لم أستطع، بكيت وأنا أرتدي ملابسي.

خرجتُ مسرعًا، كنتُ أبحث عنها.

ليلى.

لم أجدها، البتة لم أجدها.

ظلَّت تأتي في أحلامي، لكنها أحلام كوابيس.

إلى أن رأيتها بعد أشهر قليلة.

كنت أجلس في كافتيريا، مساءً.

كانت تجالس شابًا، يبدو أنه صديق لها.

كانا يتلمَّسان أيديهما.

رأتني.

لم تتردد،

جاءت إلى طاولتي ومعها ذلك الصديق.

مدت يدها مصافحة:

- صديقي نورالدين.

صافحني صديقها، ابتسما ومضيا.

لم أكترث.

انزويت في خزانتي المتربة.

تتسلل منها صور قديمة وباهتة.

هكذا، هكذا.

عريشة دنون

منزويًا كان، خزانة متربة، مزرعة كبيرة، بيارة صغيرة، بيت طيني، بيت حجري، وحمار لا يأخذه إلى البحر.

جبال وعرة، سهول ووديان، وعلى الهامش، عريشة، عنب وبوص وطين رملي، وعود قديم أتى به من الناصرة.

صفية زوجته، وابنتاه الجميلتان زينة وسلمى.

عمي دنون، طويل ونحيل مقارنة بأبي، بسيط، لا يحمل إلى مخدته أي أثقال معاشية ونفسية.

تحدٍّ من نوع آخر، بيارة برتقال وحمضيات وبطيخ.

وبيت له ولأبي وجيه. يعمل في البيارة وفي المزرعة الكبيرة التي يملكها الخواجا موسى، يهودي فلسطيني.

لم يكن يميز بين البيارة والمزرعة، كان محل ثقة من أخيه وجيه الذي كان يجوب البلاد، شمالها وجنوبها على ظهر تراكتور زراعي ومعه معاون أو اثنان، أو الخواجا موسى.

ومزرعته مترامية الأطراف والمنظمة في الري والتشذيب ومعالجة الآفات والقطاف.

تزوج من صفية، فائقة الجمال، من قرية بعيدة، تعرَّف على أهلها وكانوا يسكنون أطراف القرية الجبلية، علاقة غير ودّية مع القرية وسكانها.

ليست غجرية، لكنها تشبه الغجريات، جمالًا وتوحشًا وسلوكًا. له منها ابنتان، غاية في الجمال، طويلتان، نحيلتان، وشقراوان، زينة الكبيرة وتليها سلمى، متقاربتان في العمر.

أول الليل حين يعود، رائحة الطعام النفاذة، والصابون العطر يجتذبه، تأكل الأسرة، ويبتدأ عمي بالعزف على عود قديم كان قد اشتراه من الناصرة، بل تدرَّب قليلًا على العزف هناك.

بعد الهجرة الأولى، وإن ظلَّ مؤمنًا بأنه يومًا سيعود إلى بلده الأصلي، لكنه بدأ بالتعايش مع الوضع الجديد، لكن لا مزرعة ولا بيارة.

اجتذبه بعض الأغنياء، أصحاب مزارع كبيرة ومثمرة.

عاش هناك، عريشة من بوص وطين، وتوزيع لأكثر من غرفة منام، ومطبخ وحمام، والعود.

أينعت صفية والجميلتان زينة وسلمى.

ذات مساء، بعد عودته من المزرعة وشؤونها، لم يجد صفية، لم يجد الصبيتين زينة وسلمى.

اختفين مرة واحدة.

نام قلقًا، الكآبة والقهر.

اليوم التالي، ساعات طويلة وكان في قرية زوجته.

لم يجد حتى البيت، بيت أهلها الذي تزوجها منه.

أهل القرية أشاروا بأيديهم، عن خروج بلا عودة.

عاد إلى عريشته، ومن ثم إلى عمله.

ومساءً، بعد أن يتناول وجبة العشاء، يدندن أنغامًا شجية لعبد الوهاب.

في بحثه المضني، لم يجد أثرًا لهم.

إلى أن جاء من يدله على صبيتيه، أحياء شعبية على أطراف المدينة.

الكبيرة زينة لم توافق، سلمى وافقت على العودة معه.

طعام وشراب، أخذها لطبيب يعرفه، فحوصات وملابس.

جاءه تبليغ من الشرطة، راجع المخفر، لم يكن يخشى شيئًا.

هناك بلاغ من ابنته سلمى، وبدعم من الأم وزينة.

اتهام بالتحرش والاغتصاب، نام ليلة في المخفر.

اليوم التالي، جاءت صفية ومعها الصبيتان.

- تنازل عن سلمى، نتنازل عن البلاغ.

إصرار قاسٍ وغريب.

وعاد مساءً إلى عريشته، بلا سلمى.

هذه المرة رصد الثنائي، الكآبة والقهر، له فخًا.

حاول النجاة.

شارد الذهن، زائغ العينين، وقع عن حماره في عودته إلى العريشة، ألم حاد في حوضه، سمع صوت عظمه يتكسر.

أخذوه إلى المستشفى، هناك كسر في عظم الحوض، رأس عظمة الفخذ، رفض العملية.

مع الألم، لكنه واصل الإشراف على المزرعة وبمساعدة بعض من العمال الزراعيين.

صاحب المزرعة، يقيم على فترات متباعدة حفلات خاصة داخل بيت ريفي شتوي في مزرعته.

اجتذبه صوت الموسيقى ليلًا، ذهب إلى هناك، يتكئ على عصاه.

حفلة راقصة.

استطاع تمييزهما، زينة وسلمى ترقصان.

تابع الرقص، شعر بحنين قطَّعه بقسوة.

كانتا قاسيتين عليه.

عاد إلى عريشته.

تلك الليلة، ازداد ألمه، الحوض، وألم أكثر حدة في الصدر.

تناول العود وعزف.

أعطى عنوان ابن أخيه نورالدين لأحد العمال الزراعيين، طالبًا حضوره.

حينما جاء نورالدين، وجد كومة عظم باردة،

وعود.

ياسين

له من الأبناء ثلاثة، نالوا جميعًا شهادة المترك،

وغابوا في ثلاثة دول عربية: الكويت، السعودية، وعُمان.

عملوا مدرسين، تزوجوا وأنجبوا. في البداية كانت عودتهم الصيفية كل عام، ثم بدأت بالتباعد، خصوصًا بعد وفاة الأم، آمنة.

خالي ياسين، الأكبر في إخوته، شاربان كبيران وغطاء أبيض للرأس وعلبة دخان هيشي لا تفارقه.

يبتسم، يتلألأ سنّان بغطاء معدني، لا أظنه ذهبًا أو فضة.

لم يطلب من أولاده الثلاثة مساعدة.

- لا أحتاج إلى أحد، أنا قوي وصلب.

عمل في كل المهن الشاقة، بلا كلل أو تذمر.

كأنها هواية.

حَجّارًا في المحاجر القريبة، قطع الأحجار وتشذيبها، أو تحويلها لحصىً صغيرة، ناعمة وخشنة.

طرّيش، فرشاة وسطل ومواد شيدية يذيبها.

ألوان زاهية، أبيض، أحمر، أصفر، أخضر.

بيوت المخيم الصغيرة والفقيرة، تعود جديدة، رائحة الشيد تسود.

ضعف بصره، وفقد الرؤية في العين اليمنى.

لكنه واصل العمل، صيفًا وشتاءً.

ثم انتقل إلى حفر آبار ليست بالعميقة لسكان المخيم.

وجد جرارًا فخارية أثرية، ينحّيها جانبًا ويواصل الحفر.

- وجدت ذهبًا يا ياسين.

- ومنين الذهب، لو رأيته سيختفي فورًا.

يضحك من قلبه، وتبرق أسنانه المعدنية الأمامية.

تلك العائلة تحضر له فطورًا من بيض وفلافل، وتلك غداءً، وأُخرى عشاءً بعد أن ينتهي من العمل.

يعود إلى وحدته، يغتسل، ينفث الكثير من دخان الهيشي وينام.

في بداية شبابه وقبل الهجرة، كان قريبًا من عصبة التحرر الوطني الفلسطيني، وبعد ذلك صديقًا للحزب الشيوعي الأردني. يأخذ الجرائد، يتفحصها ويخبئها في وحدته، مكان آمن.

يدفع قروشه للحزب.

لم يستمر طويلًا في مهنته كحلاق شعبي.

نقود قليلة وضجر، ووقوف مرهق على القدمين.

بدأ الوهن يسيطر على جسده النحيل، ارتفاع بالضغط وصداع شديد وطنين في الأذنين.

تصل إليه أخبار أبنائه وأحفاده، يبتسم ثم يواصل عمله.

اختار بهدوء أن يحفر قبورًا في مقبرة المخيم، كان يلهث، لا يفارقه الصداع.

لم يكن يعلم أن آخر قبر حفره، سيكون من نصيبه.
حفر بهدوء، مقاومًا لهاثه، صداعه.
حينما انتهى، شعر بتعب، رغبة في التقيؤ.
ثم غطَّ في نوم عميق، إلى جانب القبر.

الخال سعادة

قصير القامة، خدان أحمران متوردان، عيون خضراء مشعة، ضحكة ونصف، ولا يكمل.

بعد الهجرة، عمل في مقهى، يقدم الشاي، القهوة، تمباك، وورق اللعب والشدة.

تزوج من فتاة جميلة، بهيجة، تماثله جمالًا، أنجبت له ولدين، ياسر ثم بعد ثلاث سنوات تيسير، ثم لم تنجب.

ترغب في بنت.

- لا نصيب.

تقول، ويؤمّن على كلامها.

ينثر نكتة هنا ونكتة هناك، وجمل ثورية هنا وهناك.

وأصوات مضحكة، يغني أحيانًا ويتوقف فجأة،

ليعلو صوت الراديو الخشبي الكبير.

الأخبار، الأخبار التي تأتي بالجديد، ولا جديد أبدًا.

يعرف رواد المقهى، البسطاء، والوجهاء، والعمال والفلاحين والمهن الصغيرة، يناديهم بأسمائهم أو مهنهم.

ينتظر مع الناس أخبارًا، لكن.

لا أكثر من ضحكة ونصف، كأنه ينزل الستائر في مسرح كبير.

تعرّف على عبد اللطيف اللداوي.

ترك مهنته في المقهى،

وافتتحا فرنًا لسكب النحاس.

تناوب الاثنان على العمل في المسكبة، وانتعش العمل، يستقبلون النحاس، ويوردون النحاس بأشكال متقنة وجميلة، كما يطلب المتعهّد أو المشتري.

سنوات مرّت، بدأت معاناة جديدة.

يداه ترتجفان.

ثم نعاس، تأتي فتيات يلبسن السواد، لا يغطين نصف شعورهن، يمزحن معه،

ثم يغفو، يغفو طويلًا، ساعتين.

لا يجد الفتيات، وبعضا من النقود.

ساحرات، ربما، ساحرات.

يأتين بعد أشهر، يمزحن معه، يغفو، يغفو طويلًا، ثم يستيقظ، ولكن لا يجد أن نقوده أو أي شيء في المسكبة قد فُقد.

أسرّ لبهيجة زوجته، أخذت الأمر مأخذ الجد.

- تترك المسكبة.

قالت.

تحدث سعادة إلى شريكه عبد اللطيف اللداوي، وسخر منه، لكنه أصرّ على عبد اللطيف أن يشتري منه حصته في المسكبة.

وافق عبد اللطيف على مضض، يحب مشاركته.

- سعادة طيب ومُبهج.

قال عبد اللطيف متأثرًا بما جرى.

انطلق خالي سعادة حرًا، لا مقهى ولا مسكبة.

ونقود في جيبه.

وسَّع بيته في المخيم، أخذ ساحة أكبر، ووحدة أخرى إلى جانب وحدته.

يخرج أكثر من مرة إلى البرية مع بعض من رفاقه للصيد، كانوا يمتلكون جيبًا قديمًا.

يعود بطيور كبيرة، حيوانات برية، أرانب، ثعالب وضباع.

تعلم التحنيط، ونجح في تحنيط الطيور والحيوانات البرية، بيت في المخيم، طيور بريش محنطة، حيوانات محنطة، وأوانٍ وتحف نحاسية تملأ المكان.

النقود تنفد.

أحضر قليلًا من زجاجات خمر من محلات وسط البلد.

أرباع وأنصاص أو كبيرة.

يبيع لزبائن يعرفون بيته، ثم توسَّع وأحضر كميات وأحجام متنوعة.

- هه، ها حانة الأقدار.

مسنّون وشباب، هكذا كانوا يسمّونه، غرفة وساحة بيت سعادة.

لم يكن يسمح لأحد بتناول الخمور في الساحة، ساحة بيته، إلا القليل من المسنين الذين يعرفهم.

جرعات قليلة، وأم كلثوم تصدح من راديو خشبي في ركن من ساحة بيته.

- تأتي الأخبار، ولا أخبار.

تراود المسنين والشباب أحلام وأحلام كالأخبار، بلا جدوى.

افتتح ياسر وتيسير مقهىً حديثًا وناجحا، عائد مالي جيد.

فُقد خالي سعادة لأيام قليلة في رحلة صيد في الصحراء، عاد رفقاؤه ولم يعُد.

بحث ابناه ياسر وتيسير.

وجداه أخيرًا في أحد الأودية، ميتًا.

ضباع كثيرة نهشت من جسده.

عادا به.

خالي سعادة الجميل، بكته بهيجة بحرقة،

ولم تعشْ طويلًا بعده.

المسافر

لم يكن طويلًا ممشوقًا مثل عمي دنون.

متوسط القامة، ممتلئ، عينان كالصقر، وشارب صغير مشذب.

شعر بني مرتب، يشي برجل يحب الحياة.

كان عمي دنون هو من يشرف على بيارتهم وعلى البيت.

وجيه، أبي، دائم السفر والترحال.

تراكتور زراعي، يتقن سياقته، ومعه مساعدان، يطوف البلاد من الناقورة حتى رفح.

أراضٍ زراعية بلا حدود طيلة السنة.

دخل مجزي، يعطي جزءًا منه لمساعديه.

عمل نهاري حتى المساء.

يشعل نارًا في المساء وعلى جمره يشوون جديًا أو خاروفًا، والقليل من الشراب.

رأى أمي، مرة واحدة، أخذه جمالها الطفولي، طلبها له أخوه من أمها، جدتي حلوة، وخالي الأكبر ياسين.

جميلة وصغيرة، لكن اسمها مُرّة.

تقول جدتي: ابنتي الوحيدة، الاسم يحميها من العين والشر.

تأخرت في الإنجاب، ربما قلة عودته إلى البلدة بسبب عمله الطويل وسفره البعيد الدائم.

جئت أنا، نورالدين، بعد الهجرة مباشرة بسنتين.

فرحا بي، أبي، أمي، وعمي دنون، جدتي حلوة وأخوالي.

كنت لا أفارق حضن جدتي حلوة لأيام طويلة، وزيارات خالي فضل، موزة وتفاحة، برتقالة وبلحة، توأم أمي أو يكاد.

لم أكن أرى أبي كثيرًا.

عمل بعد الهجرة، وكانت معه رخصة سياقة إنجليزية، سائقًا لشاحنة كبيرة، تنقل الخضار وخصوصًا البطيخ إلى الخليج العربي، الكويت.

يغيب أبي أسابيع كثيرة، ويعود محملًا بالهدايا والحرامات.

أمي مرة، وحضن جدتي حلوة التي فقدت بصرها، وخالي الأصغر فضل.

تحول أبي إلى سياقة الثلاجات الكبيرة إلى الخليج، الكويت.

يغيب أسابيع طويلة ويعود.

- نصيبك يا امه.

كانت جدتي حلوة تهدئ أمي، حتى بدون أن تتذمر.

يعود أبي كل أشهر مع مساعده إلى المخيم.

عاد مساعده تميم وحيدًا، كان أبي الذي يعاني من السكري ولم يكن يأخذ له علاجًا، قد سافر رحلته الأخيرة.

على الطريق الصحراوي، فاجأته نوبة، غيبوبة سكر، أثناء عودته شتاءً. فارق الحياة،

أحضره وثلاجته، تميم إلى البلاد.
وضع هداياه أمامي وأمي مرة وجدتي حلوة.
فارق أبي الحياة.
تبعته جدتي حلوة بعد أشهر قليلة.
بقيت أنا وأمي.
أخذنا خالي فضل إلى بيته.
باع الثلاجة، تعلمتُ أنا وكبرت، وذهبت إلى الجامعة وتخرجت.
بقيت أنا ومُرّة أمي، وخالي فضل.
غبار ورماد، خزانة كئيبة، لا تفتح.
مغلقة.

فضل

يكبر أمي بسنة وأشهر قليلة، كأنه توأمها.

متعلقان ببعضهما، محبان، عاشقان.

تزوج خالي وأنجب بنتين، عائشة وفاطمة، يحب زوجته وبناته كثيرًا.

لكن مُرّة إنسانة مختلفة، يمرض إذا مرضت، يبتهج فرحًا حينما يراها مبتسمة، نلت أنا نورالدين الشيء الكثير من محبته وعطفه واهتمامه.

يعمل خياطًا عربيًّا (بلدي).

يحبّه الناس ويألفونه بسرعة، يصنع لهم ملابس بلدية مريحة ومحببة لهم، دماية، قمبازا، ساكو.. لم يتذمر أحد منه، محب للحياة والطعام.

يشرف على إعداد وجباته الساخنة والشعبية التي تعدها زوجته بنفسه، أصبح سمينًا، نصحه الأطباء بالتقليل من وجباته ونوعيات طعامه، لم يكترث. أصيب بالسكري، النوع الثاني. يأخذ العلاج أيامًا ويتركه أسابيع.

كلما ذكّره أحد، يضحك.

- لا أحد يموت ناقص عمر.

تزوجت عائشة وفاطمة وأنجبتا أحفادًا، يزورهم ويزورونه.

توفيت زوجته، تألّم كثيرًا، لكنه واصل عمله.

وكأن توأمه، أمي مُرة، كانت صمام حياة له. يحضر الطعام لنا بنفسه، ثم يستغرق في خياطة الملابس، لا يشعر بملل.

بـدأت مضـاعفات السـكري تظهـر عليـه. تقرحـات في قدميـه، ضـعف بالبصر، وخلل في وظائف الكلى.

زار الطبيب برفقة أمي.

- فضل، حبيبي، من أجلي، تلتزم بما قال الطبيب.

قالت أمي بحنو.

ابتسم، ثم ضحك:

- حاضر، حاضر يا مُرة.

لأول مرة، يضحك ولا يسخر، ويوافق.

تركتنا مُرّة، أمي، فجرًا ذات يوم.

صدمة لخالي فضل،

لم يصدقها أو يستوعبها.

ملابس شعبية كثيرة في مخيطته، يتحدث إليها، إلى الملابس مَرة، وإلى أخته مرة، ويهلوس.

لم يصدق أن مُرة فارقته.

وأضحى بلا حراك، مرة واحدة.

تقـرح ظهـره، وفخـذاه، تآكـل الجلـد واللحـم، وبـرز العظـم والتهـب، ونسبة السكر في الدم لا تنخفض.

يهلوس، ويهلوس.

- مرة، مرة.

ثم يضحك ويبكي.

- أحضروا لي حبيبي نورالدين.

قال هامسًا بثقل إلى ابنتيه عائشة وفاطمة.

حينما حضرت، تحسس وجهي وقبّل يدي، حاولتُ تقبيل يديه، كان شاحبًا ويهذي.

- نورالدين، لماذا لم تحضر معك أختي مُرّة.

- حاضر، المرة القادمة يا خالي.

ابتسم، ثم فارق الحياة.

شبح

وجه أبيض نضر، مشع.
ابتسامة لا تفارقه.
فستان ليموني، غامق، يمتد ما بعد الركبة بقليل.
تنتشر عروق نباتات متناثرة، تميل إلى الأخضر.
أسير متهالكًا في شارع جانبي.
شابان يبحثان عن عمارة، يسألانني، لا أجيب.
نباتات وأشجار مغبرة.
تقدمت نحوي، رفعت يدها اليسرى،
توقفتُ.
نظرتُ كالأبله إليها، تقمص وجهها جدية مفتعلة:
- هذه الصورة لك.
قالت.
صورة قديمة باهتة، ليلى.
من أين جاءت بها.
تساءلتُ في نفسي.
تقدمت أكثر.
- اسمي سارة.
ابتسامة فاترة.

- هل تدعوني إلى مقهىً قريب؟

وكأنها خدرتني.

على شرفة المقهى، جلسنا أنا وسارة تواجهني.

وضعت الصورة الباهتة على الطاولة.

- هذه الصورة كانت في جيب رجل، مات. لكنه يذكرك دائمًا، كان يذكرك.

أيقظت الصورة، أيقظت ليلى.

صورة قديمة باهتة.

ليلى،

سقطت من خزانة قديمة متربة.

ورماد.

رأيت حائطًا من الكآبة والقهر.

زمن ومكان.

- نورالدين،

أنت في غيبوبة.

ألقاك ما بين حلمين، ربما تكون في يقظة.

- تعرف اسمي.

فكّرتُ.

- نلعب الشطرنج، هل تعرف؟

وأشارت إلى النادل.

أحضر شطرنجًا ووضعه بجانب الصورة.

كنتُ مسحورًا.

- كنتُ أتقنه تمامًا، بل ومتفوقًا في لعبه.

قلت.

- لنلعب إذن.

قالت.

- لكني في أسفاري وتجوالي، عرفت أنني لم أكن ألعب الشطرنج، قواعد مختلفة، قلت ثم تابعت.
- أخبروني أن ما ألعبه لا يمت للعبة وقواعدها، فاعتزلت.

ابتسمت ولم تُعلق.

توهج وجهها، ولمع في عيني، وجهي، نور ساطع واضح كاشف.

- سارة.

لفحتني أنفاسها، كانت تقترب وتبتعد.

- وأنا في التاسعة، طفل في التاسعة، برد وصقيع، أقف خارج الباب الخشبي للغرفة، أستمع إلى ألف ليلة وليلة من المذياع. الصوت مشوش، القصص تأخذني بعيدًا، تطير بي، أميرات جميلات، وشريرون، جن، وحمالون وأمراء، وعجوز، عشق ولقاء.

ثم تتلو:

إلى أن جاء هادم اللذات ومفرّق الجماعات، مولاي..

أغمضت عيني.

- سارة، استهلكت عشرات السنين قبل أن أعرف من هو هادم اللذات ومفرق الجماعات.

توقفت.

فتحت عيناي، ما زالت سارة أمامي.

- هل تعرفين؟

تمتمت.

- نورالدين، الموت.

واختفت،

اختفت تمامًا.

فـــؤاد مطـــــــر

Pencil, Pen

قلم رصاص، قلم حبر...

صعدنا الجبل، واصلنا الصعود حتى القمة ثم انحدرنا.. سهول، أودية، نباتات وأشجار باسقة ثم هضبة. سهل، ثم صعود، صعود.

{اقرأ وربُّك الأكرم الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم}.

قرأها خليل الشيخ بصوت عالٍ، ثم علي زعتر، ثم فؤاد مطر.

واصلنا السير، لم نكن نكترث لشيء.

قصائد وردزوورث كانت عصية على الحفظ، قصيدة The butcher أيضًا عصية على الحفظ.

متى ينبت لنا شعر أكثر طولًا من نمرة اثنين؟ متى نمتلك أقلام حبر نكتب بها؟

واصلنا السير بلا توقف، كان ذلك خارج المخيم، خارج المدينة.

رائحة أمي، حطب مشتعل.

مخلل خيار، رائحة أبي.

تحدث معلمنا

pencil, pen

قلم رصاص، قلم حبر،

زمن، مكان، نملة، نحلة، فراشة، طائر، كلب، قط.

قدمان، عربة، قطار، طائرة، صاروخ، مركبة فضاء، نجمة، كوكب.

حركة، حركة، حركة.

زمن، مكان، زمن، مكان.

اقرأ.

تأبين الفقر، تأبين المرض، تأبين الجهل.

تخليد الحياة، الطبيعة وكائناتها.

طال شعرنا، وامتلكنا أقلام حبر.

قال علي زعتر: تأبين الفقر، أم تأبيده؟!

الجرائد السرية، أيدينا تتلقَّفها وتوزّعها.

قال خليل الشيخ، تأبين المرض، أم تأبيده؟! واصلنا توزيع الجرائد كل شهر.

قال فؤاد مطر، كنا قد تخرجنا في دار للمعلمين بالمدينة:

«تأبين الجهل، وعلى المقهى في المدينة المجاورة للمخيم حيث كنا نلتقي، نشرب قهوة المساء وسجائر بلا توقف»، أعاد علي زعتر: «تأبين الجهل، أم تأبيده؟!».

كنا، ثلاثتنا، قد انتسبنا إلى جامعة دمشق، آداب، قسم الفلسفة.

قال فؤاد مطر: «نبحث عن الفرح». ضحكنا حتى دمعت أعيننا.

مدرعات وطائرات كانت تجوب الشوارع والأزقة. قال خليل الشيخ بسخرية: «نبحث عن الفرح؟!».

سائدة مطر، تصغر فؤاد مطر ببضع سنين.

رقيقة، صامتة معظم الوقت، تشي عيناها بدفء لا ينقطع.

درست سائدة أيضًا في معهد للمعلمات وتخرجت، وعملت مُدرسة.

ظلت محط عشق لعلي زعتر وخليل الشيخ، كلما زارا بيت أخيها فؤاد في المخيم.

- نكنس الاحتلال أولًا.

قال علي زعتر.

تراجع الفقر، المرض، الجهل.

غاب البحث عن الفرح؟!

عينا سائدة مطر قالتا: لم يغب الفرح.

رأى ذلك علي زعتر وخليل الشيخ، ولم يره فؤاد مطر.

انقضَّ الجنود على المقهى، أقفلوا الشوارع المحاذية.

فؤاد مطر، علي زعتر وخليل الشيخ في حافلة ناقلة للجنود، مقيدي الأيدي والأقدام.

لم تنقطع زيارات أمهاتنا وأخواتنا، سائدة كانت تأتي لنا بالحلوى.

علي زعتر، وفؤاد الشيخ يتقاسمانه مع فؤاد مطر لأيام قليلة، يأكلانه بتلذذ.

قال علي زعتر الذي كان سمينًا ذا رأس كبير، قصير القامة، وعيناه جاحظتان: هذا هو الفرح.

يؤمن خليل الشيخ، طويل القامة والممتلئ: نعم، فرح من نوع آخر.

يظل فؤاد مطر، النحيل، طويل القامة، ساهمًا، لا يعلق.

غُربـــــــــة

أُبعد ثلاثتهم إلى لبنان ثم إلى عمّان، سنوات قليلة.

عاد علي زعتر إلى أمريكا اللاتينية، كولومبيا، حيث يعيش والده منذ سنوات، وحصل خليل الشيخ على منحة لدراسة الفيزياء في الولايات المتحدة، وعاد فؤاد مطر إلى الوطن بواسطة الصليب الأحمر، كان ذلك للوداع وحضور جنازة أمه. بقي هو وسائدة أخته، وحيدين.

اتفق الثلاثة أن يلتقوا كل خمس سنوات، ثم امتدَّت إلى عشر سنوات.

وحين تحصّل علي وخليل على جنسيات أخرى وجواز سفر تمكنهما من العودة للوطن بلا مشاكل، كان مخيمهم، المدينة المجاورة، المقهى والموعد القديم نفسه.

على مشارف السبعين عامًا، نزحف، لا، نحن نصعد، هل وصلنا؟

لم نصل، نصعد ونهبط.

ثمة يومين، ما بين وصول علي زعتر من كولومبيا، وخليل الشيخ من الولايات المتحدة. نفس المقهى، مساءً.

قهوة ساخنة مُرّة، وسجائر، شوارع ووجوه مألوفة، وغير مألوفة.

في الانتظار، لم يأتِ فؤاد مطر.

يعرفان بيته القديم في المخيم، انتظرا ساعتين ثم اتجها إلى المخيم، البيت القديم، بدا هرِمًا وبدت الأزقة ضيقة.. أطفال ومراهقون، ضجة وحركة تملأ المكان والزمان.

فَرح

أطلّ الفرح من العينين، شعرٌ أبيض طويل، ما زال وجهها وقوامها جذابين.

ابتسامة، حاولت أن تبدو جذِلة.

- أهلًا، أهلًا وسهلًا

تبادل علي زعتر وخليل الشيخ نظرات تعجب.

- عرفتِ من نحن!؟

قال علي زعتر.

- أهلًا، أهلًا وسهلًا، ومن ينسى الأستاذ علي زعتر والأستاذ خليل الشيخ، تفضلا.

ترددا في الدخول، تقدما ببطء، وفي الصالون الصغير المتواضع جلس كل منهما على مقعد.

- سأعدُّ لكما قهوة.

قالت سائدة.

- لا، لا تتكلفي شيئًا، نحن..

قال خليل الشيخ.

- يا عيب، أنتم أصدقاء حبيبي فؤاد، أهلًا وسهلًا.

جاءت هادئة، تحمل صينية عليها ثلاثة فناجين قهوة، وثلاث قطع من الحلوى.

أمسك كلٌّ بفنجانه.

قال علي زعتر: هذه الحلوى تذكرني بالسجن.

- هه.. هه، ما زلت تذكر؟!

برقة قالت سائدة.

وبعد أن ارتشف كل منهما من فنجانه، لم يقاوم أن يمسك بقطعة الحلوى خاصته، الفرح.

تبادل الثلاثة نظرات، الحلوى تبعث فرحًا.

انتفض خليل الشيخ فجأة:

- جئنا نسأل عن فؤاد، كان لنا موعد.

لم تدعه سائدة يكمل:

- أعلم ذلك، أستاذ خليل، كان يخبرني بكل شيء، أعلم. الحقيقة أنني محتاجة لكل منكما.

قال علي زعتر: نعم، لماذا؟

تابعت سائدة: فؤاد، أخي فؤاد اختفى منذ أشهر قليلة، انقطعت أخباره.

وبكت بصمت.

رحلـــــة

تـردد فـؤاد مطـر وبشـكل منـتظم علـى معهـد سـيرفانتس الإسـباني في المدينة المجاورة للمخيم. تعلَّم الإسبانية وأصبح يتقنها. تعرف هناك إلى موظفة في المعهد، هي من علمته الإسبانية. تحمل الجنسية الإسبانية من أبيها فيليب، والإيطالية من أمها إزاورا.

في الأربعينات من العمر، أنيقة، بسيطة وجذابة وذات عينين متقدتين ذكاءً.

تعلم منها الإيطالية أيضًا ولو بدرجة أقل من الإسبانية.

ورغـم فـارق العمـر، أكثـر مـن عشـرين عامًـا، إلا أن علاقـة مـا، نشـأت بينهما. بيرتا، اسمها بيرتا. كانـت ناشـطة سياسـية، تخـرج في المظـاهرات، تـزور المرضـى والمعتقلـين. حُـذِّرت أكثـر مـن مـرة، لكنهـا كانـت عنيـدة ومتقدة شجاعةً وقوة.

ذات مسـاء، أُخـذت مـع حقيبـة ملابسـها رأسًـا إلـى المطـار، اتصـلت تليفونيًّا بفؤاد وأخبرته أنها رُحّلت إلى إسبانيا.

المعهد، معهد سيرفانتس، الشوارع المؤدية للمعهـد، وبيـت المخيـم، أضحت كئيبة.

- الحياة كئيبة يا سائدة.

قال فؤاد وهو ساهم.

ربتت سائدة على كتفه ومسَّدت شعره.

- ماذا نفعل؟ لا أدري كيف أساعدك، فؤاد، حبيبي.
- بيرتا، هي الفرح الباقي يا سائدة.

أيام قليلة، أعدَّ حقيبة صغيرة حملها على كتفيه الكهلين. ملابس داخلية، فرشاة أسنان، ماكينة حلاقة وغيار بسيط. ذلك الصباح كان أنيقًا ببساطة رغم تقدم العمر. وطن محتل، حيوات ممزَّقة، وإقليم مضطرب، بل والعالم بأجمعه مضطرب.

ارتدى ملابس جميلة وأنيقة أخذ حقيبته الصغيرة، انطلق يبحث عن بيرتا.

أخيرًا، يبحث عن بيرتا. الحب الأخير، اللحظات الأخيرة، يؤبد الأمل، والفرح.

حاول تأبين فقر وجهل ومرض، لكنه قال لي: لن أترك أحدًا يجعلني أؤبد فقرا، مرضا، جهلا...

الأمل والفرح، بيرتا.

غادر إلى عمّان، تونس، مراكش ثم إسبانيا.

وصل إلى عمان عبر الجسر، أقام يومين قبل أن يغادر إلى تونس حيث أقام ليلة واحدة، ثم الدار البيضاء في المغرب، وأقلع من هناك إلى إسبانيا.

أرسل إلى سائدة كارت بوست من إسبانيا يخبرها بوصوله بعد رحلة طويلة.

ذهب إلى مقر المركز الثقافي الإسباني الرئيسي، سيرفانتس، سأل عنها، الكل يعرفها. أخبروه أنها أخذت إجازة طويلة وغادرت إلى إيطاليا، نابلس، نابولي، حيث قرية أمها وجَدّتها.

أخذ العنوان وغادر إلى إيطاليا، نابولي. مكث ليلة قبل أن يذهب إلى قرية بيرتا. وصل أخيرًا، أقام ليلة في نزل في القرية، في الصباح سأل عن البيت، دلّوه بسهولة، هذا بيت السيدة كارمن والسيدة إزاورا، وهو الآن بيت الآنسة بيرتا، تأتي قليلًا، كانت تعمل في باليستا (يقصدون فلسطين).

قال بهدوء: أنا من باليستا.

رحبوا، قدموا له نبيذًا وبيتزا على الحطب، شربوا نخبه ونخب باليستا.

لكن بيرتا غادرت، إلى أين، لا أحد يعلم. كان ذلك آخر بوست كارت يرسله لسائدة. لم أجد بيرتا، أحاول البحث عن بيرتا، فرح.

نقودي بدأت بالنفاد.

مضت أسابيع، أكثر من شهرين، لم يصل منه شيء.

وعد خليل الشيخ وعلي زعتر بالبحث عنه، بطريقتهما.

فرح آخر

زارها كلّ على انفراد، أولًا علي زعتر. أكد لها أن اتصالاته الخاصة تقول وصوله إلى عمان، تونس، إسبانيا، إيطاليا، ثم اختفائه.

- وما الجديد؟

سألت سائدة.

أخبرها أنه سيحاول البحث، ثم طلب منها وبرقة أن يرتبط بها، ثم يستقر معها في البلاد. يعلم بتقدم العمر، لكنه كان يود العودة، يستقر نهائيًا. زوجته الكولومبية توفيت منذ سنوات، واستقل أبناؤه كلٌّ في تجارته.

- هل هذا وقته؟

شعر علي زعتر بخجل.

- ليكن بعد عودة فؤاد.

أخبرته أنها ستنظر في الأمر بعد عودة أخيها.

قام خليل الشيخ بزيارة سائدة، أخبرها بتحرياته واتصالاته التي لم تفضِ لشيء، ثم بخجل وتردد طلب يدها.

أخبرتهُ أنها ستنظر في طلبه بعد عودة فؤاد.

كان خليل الشيخ قد انفصل عن زوجته الأمريكية بعد أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، أخبرها أنه يود الاستقرار في البلد.

مقـــهى قديـــم

التقيا، نفس المقهى القديم، علي زعتر وخليل الشيخ.

- نحن على مشارف السبعينات.

هل وصلنا، يلبس كل منا بنطالًا من الكاكي وقميصًا أحمر مخططًا بالأسود، هل وصلنا؟ لم نصل، نصعد ونهبط. نصعد ونهبط.

قال علي زعتر.

- نحن رماد، رماد نهائي، لا يختفي، لكنه يتبعثر، يتبعثر.

تكلم خليل الشيخ وهو ينظر إلى البعيد.

صارح كل منهما الآخر بطلبه ليد الآنسة سائدة مطر، عشقهما القديم.

- ننتظر.

قالاها باستسلام.

تليفون من بيرتا.

قفزت سائدة من مكانها على المقعد، رفعت سماعة تليفون قديم.

- مس سائدة مطر؟

جاء صوت مشوش من بعيد.

- نعم أنا سائدة.

- أنا بيرتا.

- آه، آه، بيرتا.

ردت سائدة بلهفة.

- لم ألتقِ بفؤاد لغاية الآن، ذهبت إلى تونس، مراكش، إسبانيا، معهد سيرفانتس. يقولون مرّ من هناك، لكن لا أثر له.

تابعت بيرتا:

- ذهبتُ إلى نابولي، قريتي. قال الجيران، جاء فؤاد. سألتُ النزل الذي أقام به، الكل يقول إن فؤاد مرّ من هناك، لا أجده، لا أجده، سائدة، لا أثر له.

يبحث عني، أعلم، وأبحث عنه، لكننا لا نلتقي! لا نلتقي، سائدة.

- -ماذا سنفعل؟

قالت سائدة باستسلام.

- سائدة، أنا عنيدة، هناك أمل. سأجده، سأجد فؤاد.

انكمشت سائدة، شبح أبيض على المقعد.

- تقول بيرتا إنها ستجد فؤاد، فؤاد بحث عن الفرح، فؤاد سيجد بيرتا؟!

كانت سائدة مطر تتحدث إلى نفسها.

كائنات الصدفة

في مكـان سـحيق، بعيـد، عطشـى وجـوعى. نلهـث ولا نقـوى علـى الحركة، حتى البطيئة منها.

كانوا يقودوننا إلى منصة الذبح، نتمرَّد، لا نمتلك ذلك الترف.

أثرٌ لقبر جدي رشيد في الفيافي البعيدة.

حافلة طويلة، مقاعد كثيرة، ركاب يتبوؤون مقاعدهم. تشعر أنها بطيئة، وأحيانًا تعدو بسرعة فائقة، تبطئ حتى لكأنها تقف. يشغر مقعد من راكبه.

زمن يمضي، تشغر مقاعد كثيرة، تمضي الحافلة في طريقها، مستقيمًا أحيانًا، ومتعرجًا أحيانًا أخرى.

فكرت في أن أرى السائق. اقتربت، جسدي يهتز. حينما وصلت إلى مقعد السائق في كابينته لم أجده. الحافلة تسيّرها آلة. مجرد آلة.

قبر أمي أثرٌ، قبر أبي أثر.

قبور دارسة.

«مشيناها خُطىً كتبت علينا»

قال ذلك أستاذ اللغة العربية، قاصد، وهو يتجه إلى باب غرفة الصف الخامس الابتدائي، يفتحه، يتركنا تلاميذَ صغارًا، يمضي ولا يعود.

حقبة الحيرة

تجاوزت مائة عام، سنة واحدة.

أتيت بها إلى الحياة، في الأول من نيسان.

الحافلة تسير ببطء. سأم، سأم.

لكن لحظات فرح تثب إلى عيني، صدري. قلب عاشق. أي نوع من الكائنات يُصنَّف؟!

ذلك الرجل الذي دخل العزلة، في كتاب، ثم لم يخرج.

وحدي، لا ماضي، ولا حاضر ولا مستقبل.

وحدي، عزلة مقطرة.

تقابلنا وجهًا لوجه.

تلك السيدة.. شعرٌ أبيض، عيون متعبة وابتسامة صفراء غامضة.

ابتاع كل منا شيئًا من الخبز والحلوى. استأنسَت بي، اقتَرَبَت.

الوحدة تأكلها.

ابني وابنتي خارج الوطن، أنا وحيدة.

في شقة صغيرة، غرفة وصالة صغيرة، وحيدة.

بعد أن وضعوا لي طقم أسنان، نبتت تحت لساني بثرة، ثم انتشرت تلك البثور في كامل جسدي. الوجه، الصدر، البطن، بثرات حمراء.

أَحُكُّها، يخرج دود، دود كثير، كثير.

انظر هذه الوصفات، لا أتحسن، لا أشفى. أنا..

توقفَت عن الكلام.

- لا تقُل لي إني مريضة نفسيًّا، مريضة بالوهم. أنا.. أنا..

غصَّت. ثم وهي تنتحب بصمت:

- أنا فقط.. أنا وحيدة.

على درجات سلم قديم مترب جلسنا.. شربنا قهوة سوداء.

تأمَّلت عينيها.

رفعت كفيها لتعدّل شيئًا من شعرها الأبيض.

تأملتني.

- ليس لي أبناء.

كان هذا شعور عزلة، وحدة.

سمحت لنفسي أن أربت بحذر على كتفيها.

- اسمي شمس.

قالت تلك السيدة.

- عـذرًا، شـعرك جميـل وجـذاب. عـذرًا، رائحـة عطـرك وصـابون استحمامك يشدّ، سيدتي.

ظـــــلال الأشـــــياء

- لم نجئ من عدم، ولا نذهب إلى عدم.

قال الأستاذ بشير، أستاذ الفلسفة، ونحن ننهي المدرسة الثانوية.

- وجودنا يسبق وعيَنا، الوجود ثم الوعي به. وجودنا ضربة حظ.

مضينا، شمس وأنا، نسير قليلًا ونتوقَّف.

النهار ابتدأ يصعد.

توقفنا قليلًا، التقطنا أنفاسنا وبدأنا نشعر بتدفق الحياة مرة أخرى.

- من نحن! صحيح، لم تقل لي ما اسمك.

- برهم.

ضحِكَت:

- لم تقل لي من نحن، حدّثني عن الكائنات.

توقَّفَت قليلًا:

- أي كائنات نحن يا.. برهم.

ثم تابعت:

- كائنات العتمة، كائنات المتعة، أم كائنات الحزن والألم.

ساد صمتٌ بيننا.

ابتعدنا قليلًا، لم أنبس بكلمة، ثم:

- نحن كائنات الصدفة، شمس. كائنات العتمة، كائنات المتعة، وكائنات الحزن والألم.

لكأننا نهذي.

- أنا متعبة. لنأكل شيئًا.

جلسنا في مطعم شعبي.. حمص، فول وفلافل وزيتون.

شربنا شايًا.

وقفنا، وواصلنا المسير.

توقفتُ فجأة:

- قطٌ يسير على طريق وعرة، تمتدُّ إلى ما لا نهاية، طيلة عمري الأسبق.

قلتُ.

- الحب، الحرية، ذلك عشقي، لكن العزلة حاصرتني.

قالت شمس.

ذهبنا إلى المساء.

- نبدو أحيانًا مثل مالك الحزين.

من أين يجيء الخوف والخطر؟ من هنا، من هنا، من هناك؟!

اين يختبئ مالك الحزين؟!

قال برهم.

- أين نذهب هذا المساء؟

قالت شمس.

مضينا، أقدامنا تأخذنا، إلى أين؟

قلت في نفسي، كم أعشق تلك السيدة!

أهذي، ربما.

تفاصيل الحياة تجعلها جميلة ورائعة.

لعبــة الحــياة

طفولة، خيمة صغيرة، أوتاد. غرفة صغيرة، بستان، حاكورة، حارة، سهل، وادٍ، جبل، قرية، مدينة، وطن، كون، مجموعة شمسية.

مجرة، كون، لا بداية ولا نهاية.

صدفة.

على أبواب الفندق الشعبي الذي أقيم به، وقفنا.

- هل نلتقي؟

سألتُ.

- لا أدري.

أجابت.

- أين تسكنين؟

سألتُ.

- أسكن بعيدًا، شقة صغيرة.

انسابت مبتعدة.

دلفتُ إلى غرفتي في الفندق.

بعد عودتي من المدرسة (أعمل مدرسًا للرياضيات) أستريح قليلًا، ثم أبدأ تجوالي الذي لا ينتهي.

ينتهي المساء، أعود إلى غرفتي. ترددتُ أكثر من مرة على الفرن، المخبز، لتكن صدفة أخرى.

لم أجدها.

الأماكن القريبة، الشوارع، الصدفة لا تحدُث.

مضت أسابيع. أعود إلى غرفتي الخاصة.

ثلاثون عامًا مضت، حاولتُ أن تكون لي حريتي، ربما أكون قد فشلت. تترك قيدًا وراء قيد، لتجد نفسك في شبكة محبطة.

أعود إلى حجرتي الخاصة، ذلك يعني أقنعة خارجية.

استراحة وسلام داخلي.

هكذا إذن.

نقرٌ خفيف على الباب، أي رقة، عذوبة، خفة.

جمال كالنسيم، يمر كالضباب، كفراشة.

فراشة، هي فراشة.

- برهم، وجدتُك.

صدفة، لم تكن.

- بحثتُ عنك، أكثر من فندق شعبي، يعرفون برهم.

لكنه ينتقل ما بين فندق وآخر.

قالت شمس.

أغمضت عيني، لم أنبس بكلمة.

- طريق إلى الحب، الشغف، اللهفة، الولَه.

طريق إلى العشق، روح واحدة، جسد متصل، واحد.

قالت.

- صوفية؟

قلتُ، ولم تُعلِّق.

مضينا نسير طويلًا، لا تشغلني عاطفة متقدة تجاهها، فقط، كنت أود لتلك الصدفة أن تجمعنا، نسير، نسير، نتأمل ونثرثر.

مئات، الأشياء تعني تدفق الحياة، الجمال، البشاعة؟!

نتأمل، نثرثر.

ليس لك إلا أن تحكي، أن تروي.

رشيد خليل رشيد

في مدرسة الحكمة، توالت علينا السنون، ابتدائي، إعدادي، ثانوي، قبل أن نلتحق بالتعليم الجامعي.

قالت رشيدة، مُدرسة البيولوجي، وهي أمي:

- نحن كائنات الصدفة.

انثال الكلام ببساطة، وتركتنا حيرى.

مُدرسة الكيمياء، السمراء ذات المنديل الأحمر، رشا، قالت:

عناصر، مُركَّبات، مواد الصدفة وتفاعُلاتها.

وتركتنا حيرى.

فاضل، الأستاذ الهادئ والرصين، أبي، مدرس الفيزياء، قال وهو يحدّق في الفضاء اللانهائي: الحالة الغازية، الصلبة والسائلة، والطاقة، ثم أكوان الصدفة.

غبنا في حيرة.

في البيت، غالبًا، وفي لحظات صفاء، كانت أمي رشيدة تحدّثني عن جدي الأكبر، رشيد خليل رشيد.

أخذوه عنوة إلى الحرب، حرب بلا معنى وبلا نهاية. جوع وعطش وموت، غربة.

لم يعُد.

ظلت جدتي تروي حكاياته لأمي رشيدة.

تعويذة كانت تهمس بها في أذني، رشيدة أمي.

- برهم، لا نريد أن نقهر أحدًا، ولا أن ننتصر على أحد، لكننا نريد أن ننتصر للحياة، الحياة. نحن كائنات الصدفة.

جدك رشيد، هزلٌ مصري، حدة سومرية، وتوسط سوري، برهم.

مجموعة من الأغبياء، قتال، حروب وموت.

أغبياء.

أغفو إلى جانب أبي فاضل.

- ربما نفكر حينما نستنفد كوكبنا، الانتقال إلى كوكب آخر، أو مجموعة أخرى داخل المجرة.

مجرة أخرى.

لكن صدفة الانتقال، أو التحول من حالة إلى أخرى، صدفة، دائمًا ممكنة، برهم.

وأنا صغير كنت ألوذ إلى صخرة كبيرة، أتفيَّأ ظلها، أبحث عن نباتات غريبة وفراشات، أو بركة الماء القريبة، أتأمَّل سطحها وأرمي بحجارة صغيرة، أبدّد الصفاء، وتدور موجات دائرية من العمق حتى السطح.

غموض بين فينة وأخرى.

ملامح الكائنات، جميلة، غريبة، لكنها تشي بالحياة.

كبرتُ، وكبُر القلق.

تعب، قلق، بعض من اكتئاب

بدأت نفسي تبحث عن مخرج.

جنس، حياة، طعام، شمس، نهار، ليل، دفء، دفء، دفء ألوذ به.

من أنا، من أنت، عشق، شغف، شبق.

ظلٌّ لرماد متناثر.

سألت أمي رشيدة:

- تحدثيننني عن جدي رشيد دائمًا، ولا أحد يحدثني عن جدي الآخر.
- سليمان، الآخر سليمان. اسأل أباك.

لم أجرؤ، ولم أسأل.

لكن رشيدة، أمي، قالت ذات مساء:

- رشيد وسليمان أخوان، سليمان الكبير ورشيد أصغر بسنتين.

نفس الحروب، نفس الجبهات. سليمان مات جوعًا وعطشًا.

رشيد، الأخبار التي جاءت من العائدين القلائل من القرية تقول إنه فُقِد، لم يعُد.

حقبــة المطـــر

غابـت لأشـهُر، ثلاثـة أشـهر بالضـبط. لـم أجـد مـبررًا لغيابهـا، أنـا لـم أُغضبها.

غابت.

مرة أخرى، نقرٌ على باب غرفتي في الفندق.

أمامي، بشعرها الأبيض المنسدل، وجه أحمر تشوبه سمرة، ابتسامة.

- جئت.

ببساطة رقيقة قالت.

- نمشي.

قلت، ثم تابعت: لا أمطار هذا اليوم.

مضينا نجوب الشوارع.

أخبرتها أنني أعمل مدرّسًا للرياضيات، أتقاضى راتبًا جيدًا، وأنني أراوح ما بين الفيزياء، الكيمياء، والبيولوجيا.. والفلسفة. الرياضيات تجعلني أتصعلك ما بين تلك المواد والعلوم.

- وأنتِ.

قلت ونحن نتأهب للدخول، مقهى شعبي وسط المدينة.

جرّت كرسي وجلسَت. جلستُ قبالتها.

أحضر لنا النادل كوبين من سحلب تعلوه قرفة.

- أنا، أنا مُدرّسة أيضًا. مُدرسةُ فنون.

مَدرسة، أو قل أكاديمية.

قالت وهي تتلذذ بارتشاف السحلب.

- أُدرّس الرسم، والعزف على الفيولين.

مسّني سحرٌ.

- ترسمين، وتعزفين إذن.

قلتُ بودٍّ غامر.

- أُعلِّم الرسم والعزف، لكن، هل تدري، ليست لي إلا خمس لوحات فقط، و..

قالت بهدوء.

- جميل.. و..؟

قاطعتني وهي مستغرقة في أفكارها:

- ولي مقطوعة صغيرة كتبتُها، نادرًا ما أعزفها وحدي، على الفيولين.

وكأنها جاءت من بئر عميق، تنهَّدَتْ:

- لننسَ ذلك، ننسَ ذلك، برهم.

صدمتني برقة بالغة:

- لماذا لا تأتي للإقامة عندي، شقتي الصغيرة، تنام في الصالة، هه، شقتي غرفة نوم وصالة، حمام ومطبخ، هه، أيها المتشرد.

لـم أنـبس بحـرف، أصـابني الوجـوم، لا أدري، لكـن ضـبابًا غـام أمـام عيني.

- لماذا تصمت، برهم؟

ظللتُ واجمًا. مشينا كثيرًا، وساد صمتٌ بينا.

حزينًا كنت، بلا سبب.

فكرتُ، كونٌ تكونَ بالصدفة، يذهب بالصدفة، ويأتي غيره، صدفة.

حياة الصدفة، تنتهي بالصدفة.

وتنشأ حياة أخرى، بالصدفة.

الصدفة، قوانين الطبيعة الفيزيائية الكيميائية ثم البيولوجيا، تعبث بنا.

فجأة نزل مطرٌ غزير، غزير. أصابنا بلل كثير ووجوم.

- لا طقم أسنان، لا بثور، لا ديدان.

ولا ابن أو ابنة. من أنتِ؟!

شوحت لها بيدي، ومضيت.

حقبــة الخوف

كنـا، نحـن القطـط ذات الفـراء الجميـل، وكـلاب متشـرّدة، أصـدقاء، نتبادل نظرات وإيماءات ولكننا نتحدث بالتخاطر.

كائنات صدفة.

نمر سريعًا بين السهوب، ونهر صغير، لا، هو وادٍ إلى جانبنا.

أتأمَّـل الـزرع الأخضـر، الأصـفر، تمـوج بـه الريـاح، أتبـع الفراشـات الملونة أينما تطير، و.. ولا أضيع.

أحلم ليلًا بعد سفر الشفق الوردي.

أحلم، أحلم.

طباشير ملونة، أبيض، أزرق، أخضر وأحمر.

يا إلهي، وخيط طويل، أقرب إلى حبل رقيق.

كانوا يستعملونه أثناء دهان الحيطان، يفصلون لونًا عن آخر.

كنـز، احتفظـت بـه طـويلًا في مخبـأ سـري بجانـب صـخرة، حفـرت ووضعته هناك.

لما أصبحتُ مراهقًا كنت أضع معه بعضًا من أوراق بها تأملات بسيطة لمراهق.

أكره الحليب، زيت السمك، أشياء منفرة، الصراخ، العصا، التوبيخ، لا أحب، أكره، أقصد لا أحب.

لكن الزواحف كانت ترعبني.

الغولة، عروسة الليل، أول الليل، والمجهول.
مرض طويل وموت.

اكتشاف النار صدفة، المعادن، الطعام، صدفة.
نشعل أعشابًا في الجبل، نتحلق حولها، دفء ونور. لكني أخاف النهايات، النهايات.
قليل من العلم، الاكتشافات، نستطيع أن نحيا، تستمر الحياة.
نكون صدفة، أكثر من شبيه، ينقرض.
أخاف النهايات والمجهول.
الأساطير تريحني، لكن ليست دائمة تلك الطمأنينة.
كأنني طفل، شاب، عجوز في اكتئاب.
أساطير ألف ليلة وليلة.
لكن الخوف من المجهول يواجهني.
لعبة، إذن هي لعبة، علم واختراعات، بطيئة، سريعة، أسرع.
وأساطير تريحني، تجعلني لا أبالي بالمجهول، لكن إلى حين.

هذه المرة كنت منكمشًا على نفسي، ثم ظهرت أمامي، السيدة.
أمسكت بيديها.
- لن أتركك هذه المرة، تعالي.

كلٌّ يحمل كيسًا من خبز بيدٍ، وكعكة حلوى باليد الأخرى.

- أنا خائف، أنا خائف.

ابتسمت بثقة:

- كنت أعلم أني سأجدك، تعال، تعال.

بدا لي أن الخوف ينزاح عن صدري، وكأننا في حكاية، ورقة من كتاب ألف ليلة وليلة.

- سنذهب إلى شقتي، برهم.

كنتُ مذعورًا لكنَّ شيئًا من أمان غمرني، ومضينا.

في الصالة كان الجو باردًا، أشعلَت مدفأة وأحضرَت شرابًا ساخنًا وجلست قبالتي، تنظر إلى وجهي وكأنني طفل.

ابتسمَت:

- برهم، أنت

رشيد، رشيد خليل رشيد،

برهم.

حقيبة الزهور البرية

ما مضى قد مضى.
لا أريد أن أمتلك شيئًا، أو يمتلكني شيء، حرٌّ.
لا أنتمي إلى أسرة، قبيلة، مدينة، وطن، كوكب، مجرة.
انبثقتُ كما الوردة من قلب هذه الأشياء، أنا خصب، أحب الخصوبة.

تلك الحافلة الطويلة، أخذت مقعدًا، وأخذت هي مقعدًا بجانبي.
لم أخبرها أن الحافلة لا سائق يقودها.
بت ألوذ بأنوثتها، رقتها.

تسدل ستائر ثقيلة، أنام في الصالة.
أصحو، أرى ريشة، ألوان، وفيولين.
أشدُّ الستائر الطويلة، تواجهني شمسٌ ساطعة.

كلما ازدادت معارفك، تصبح أكثر حيرة، وخطواتك صعبة.
قالت.
- عندك حق.
رددتُ بصوت منخفض.
- تيراراري، تيرارا، تيرارا...

كانت تعزف على الفيولين، مستغرقة تمامًا.

أغمضت عينيَّ، ذهبتُ بعيدًا.

حينما انتهت.

- هذا لحنك؟

قلت هامسًا.

- لا، هذه مقطوعة لشوبرت، Serenade، لحن غرامي.

ساد صمت.

- متى ستعزفين لي مقطوعتك؟

ابتسمت:

- يومًا ما، يومًا، رشيد، برهم.

أخبرتها أنني متعب تمامًا.

- نحن غبار، غبار، تكرارات بيولوجية، نسخة وراء نسخة.

وضعَت إصبعًا على فمي.

- اسكت.

أخذت الفيولين مرة أخرى.

راحت تعزف Serenade مرة أخرى.

سحبتُ الغطاء على جسدي، كنت أرتعش، أحكمت الغطاء حول جسدي.

مسّدت شعري.

- دماغك يا برهم.

ضحكة قصيرة، تسلَّلَت إلى غرفة نومها بهدوء.

خرجتُ من تحت الغطاء.

كانت ترتدي غلالة وردية شفافة ورقيقة.

- أشتهيكِ.

همستُ.

توقفَت ثم تابعت المشي، خطوات بطيئة.

- أشتهيكِ.

توقفَت تمامًا، استدارت.

- متشرد، صعلوك ومجنون.

مدت يدًا، أصابع طويلة ورفيعة.

أمسكتُ بيدها.

Vagabond

صباحًا، العاشرة،

يزيّن صحنًا من حمّص، تتبيلة، سُمّاق أحمر، بقدونس ومخللات.

قدّمَ الصحن للزبون أمامه.

- فاجابُند.

قال فرحات لزبونه الشاب، مستغرقًا في ذهوله.

- هه؟

نطق الشاب مستغربًا.

- تفضَّل.

ضحك الشاب وجاراه فرحات في ضحك متقطع مصطنع.

ثلاثون عامًا خلت.

انتظرَ مُرورًا لمعلم القرية الأستاذ سميح.

- أستاذ، أود أن أسأل.

شو يعني فاجابُند؟ «Vagabond»

تأمَّله الأستاذ سميح من رأسه حتى قدميه.

- من قال لك هذا يا فرحات؟

كركرَ فرحات:

تعلم أني أعمل في كامب للإنجليز، وبالذات في بيت كولونيل هنري، يعيش هو وابنته الشابة مارجريت. أخدمهم، أنظف البيت، أُحضر الخُضار والفواكه الطازجة.

مرتين، الأولى كنت وحيدًا في مكتبه. كاسكيت الكولونيل العسكري على مكتبه، لم يكن هناك أحد.

وضعته على رأسي: أوف، باشا!

والثانية، كنت أنظف البيت، كانت مارجريت ترتدي فانلة وشورتًا، فخداها وصدرها، رخام يا أستاذ.

- وما علاقة ذلك بما قلت؟

تنهد الأستاذ سميح.

- هه، ضبطني الكولونيل هنري وأنا أتلصص، زمَّ شفتيه وقطب جبينه.

- «فرحات، أنت Vagabond».

لم يفعل شيئًا، ولم أرُد، ومضى كلٌّ إلى عمله.

قال فرحات.

- هذا كل شيء؟ يا لطيف، فرحات، Vagabond يعني وغد، متشرّد.

قال الأستاذ سميح وهو يخفي ابتسامة.

- هه، هه، هه، وأنا كذلك، أنا كذلك أستاذ.

أبو حسن

كم من العمر تبقّى؟!

الرحلة طويلة، كأنها ستأخذ بقية العمر، وحيدًا.

يلهث ويلهث، الصداع لا يفارق، والعينان كالجمر.

الاحتقان الدموي، من أول أصابع القدمين، الساقين والبطن، الأطراف.

الرؤيا مشوشة.

- أنت ترى بعين وربع.

قالها طبيب العيون الذي أرسلته إليه مؤسسة الإغاثة للاجئين.

ما تبقى، سمع يشاركه أزيز لا ينتهي.

مرافق معه، وثلة من اللاجئين، يترك بعضًا منهم في بعض من مطارات الولايات المتحدة.

انتهى إلى مطار لا يعرف اسمه.

«ولاية أيداهو، شمال غرب».

لم يرَ اللافتة التي تنتظره، لكن السيدة التي كانت تنتظر، نفخت في ميكروفون صغير:

- أبو هسن، أبو هسن.

شقة صغيرة جدًّا، راتب شهري صغير.

السيدة من أصول عربية، أخذته إلى مستشفى لإجراء الفحوصات.

- أهلا بك، أبو هسن في ولاية البطاطا والبرد.

تحسَّن البصر، وانتظم الضغط، خفّت الاحتقانات في جسده، تلاشى شيء من أزيز الأذن.

حديقة قريبة، يجلس هناك وحيدًا، يراقب الأطفال والنساء، ويحاول سمعه أن يعثر على كلمة عربية، يشتبك بها مع صاحبها.

حاول التواصل مع السيدة سارة والأستاذين أحمد وإسماعيل، عبثًا. أشعروه بدفء ما في عمّان.

ذات مساءٍ، التقط الهاتف، صوت السيدة سارة، حاول الحديث، أجهش كل منهما في البكاء.

انقطع الخط.

حاول التواصل مع أولاده في جنوب البصرة، عبثًا.

أخته الكبرى زينب توفيت منذ زمن.

أولاده الثلاثة تفرقوا في العراق.

نجح أخيرًا، ضبط تلفونه، استحضر أغنية قديمة لناظم الغزالي:

«فوك النخل فوق يابه، فوك النخل فوك

مدري لامع خدك يابه، مدري القمر فوك

مدري لمع خده، يابا، مدري القمر فوك.

والله ما ريده، بالليني بلوى
صعبانة الفرقة عليّ
يابا اشتقنا إليهم».

ما الذي أتى به، هنا.
كم من العمر تبقى.

عمل نجارًا، لم يكن قد أكمل الثانية عشرة من عمره.

أتقن عمله، حتى أخذ على عاتقه ورشات عدة، أبواب، شبابيك، مطابخ صغيرة، وتصليحات للمقاعد والطاولات.

انتظم في الجيش عام 67، وأُرسل مع من أُرسل إلى المفرق، الأردن، إثر حرب حزيران، وعاد بعد العام 70 إلى البصرة. خرج من الجيش، وعاد إلى عمله في المنجرة. تزوج وأنجب أبناء ثلاثة.

في أواسط السبعينات بدأت المشاكل مع أخيه الأكبر بدر.

كان بدر قد أكمل دراسته الثانوية ثم الجامعية، والتحق بالحزب الشيوعي وبدأت مطاردته.

يُسجَن ويَخرج، وهكذا.. نالَه شيء من الأذى.

فقد بدر بصره تمامًا، لكنَّه ظلَّ على صلته بالحزب.

تفرق رفاقه، سُجن من سُجن، وقُتل وعذب وهاجر الكثيرون.

أوائل الثمانينات، سيقَ إلى حرب طويلة، الحرب مع إيران. كان في الخطوط الخلفية، عاد منهكًا في نهايتها.

بدر كان يعمل ببطء في المنجرة.

مرة أخرى، سيق أبو حسن إلى غزو الكويت.

بعد أشهر، عاد حافيًا، مستهلكًا، ولكنه عاد.

أوائل التسعينات، اعتُقل أخوه بدر بتهمة التآمر والانتماء إلى حزب ديني، الدعوة.

في التحقيق، أخبرهم (وكانوا يعلمون) أنه شيوعي.

أُعدِم. هكذا فقد أخاه بدر.

تركته زوجته وغادرت إلى أهلها، بررت ذلك بكثرة استدعاءاته للدوائر الأمنية.

- أنتِ طالق.

أرسل لها ذلك وهي بين أهلها.

وترك أبناءه الثلاثة وقد أصبحوا في مقتبل العمر مع أخته الكبرى زينب.

غادر العراق خلسة إلى عمّان.

اشتم رائحة عقوبة ما قد تُلمُّ به.

عمل في منجرة في عمان لفترة، كان يأخذ راتبًا ضئيلًا من هيئة الإغاثة للاجئين.

رتبوا سفره وهجرته إلى الولايات المتحدة.

ظل يتهرَّب لفترة.

يرسل شيئًا من نقوده إلى زينب.

تفرق أولاده في العراق، وتوفيت أخته الكبرى زينب.

ولاية أيداهو، ولاية البرد والبطاطا.

أبو حسن.

يملؤون ثلاجته الصغيرة كل أسبوعين، مصروف جيب، وهذه الحديقة الكبيرة.

لا أحد.

ربما باتت كوابيسه أقل حدة، لكنها ظلت كوابيس ليلية.

«جلجل عليّ الرمان.. نومي فزعني»

«هذا الحلو ما أريده...ودوني لهلي»

خرج من الحديقة، لم يعد لشقته.

مشى طويلًا، طويلًا،

أشرف على غابة، أشجار قصيرة ومتباعدة.

اقترب أكثر، أخذتهُ أقدامه المتورمة إلى الداخل.

شواهد قبور بيضاء، وورد.

أخذته أقدامه وسط القبور.

توقف أمام شاهد قبر، تعلوه تشكيلة ورد حديثة.

يلهث، ظل يلهث.

جلس أمام شاهد القبر.

كم من العمر تبقى..

أبو حسن.

أبو عازر

مقايضة

صوت أجشّ، رخيم، فيه رصانة.

بطيء، متواصل، يعلو ويهبط، ثم يقطع في حدة.

تظنه صوت المغني عبد المطلب في وصلة قصيرة.

- «فلافييل».

أوائل خمسينيات القرن العشرين، يجوب أزقة المخيم وقرىً متباعدة، على قدميه.

وجهٌ أسمر، لوحته الشمس إلى سُمرة غامقة.

شفتان غليظتان، يلبس غطاءً للرأس ذا نقشٍ أسود وعِقال.

ملابس قديمة، رثة، لكنها مرتبة.

سلة من البوص، تحملها يمناه، أقراص فلافل صغيرة وأوراقا لدفاتر مدرسية قديمة.

جاكيت طويل يميل إلى البني الغامق.

- «فلافييل».

في أزقة المخيم الطينية.

طفل لم يتجاوز شبراً.

- فلافل، قرص فلافل.

قال وهو يلثغ.

- معك تعريفة؟ أعطيك خمسة أقراص.

قال أبو عازر بهدوء.

- ليس معي شيء، أريد حبة واحدة.

ابتسم أبو عازر وقد فهم مقصد الطفل الشبر.

- ولا حتى دفتر قديم؟

- ولا ورقة.

قال الطفل.

- حبة واحدة.

ثم وهو يقترب من السلة:

- أبو نصار، يجعلني أتفرَّج دورًا في صندوق العجب، بلا تعريفة.

ضحك الرجل الأسمر، حكَّ وجهه.

- أبو نصار أخي، لا يأخذ منك شيئًا؟

- آه، لا يأخذ.

- لم أره منذ شهر.

ثلاث حبات لك، لك وحدك.

تنهَّد أبو عازر.

قبض الطفل على الحبّات الثلاث.

اشتايم في العتمة

اشتايم، اشتايم، اشتايم..

لم نكن نرقص،

لم يكونوا يرقصون.

- شيءٌ ما في العتمة، كان يرقص.

قال خليل بقلاوة، أو بقلافة.

شاويش سابق في الجيش التركي كما يدّعي.

هذه رقصة لليهود، فتية وفتيات، يتلاصقون، يمدون أذرعهم، تلتقي أيديهم ويمرّون، اثنين، اثنين.

فتى وفتاة، يرقصون.

رأيتهم في مزرعة الخواجة اليهودي رزف، حفلة ليلية.

وقبل ذلك، لحظة وصولهم إلى ميناء حيفا.

في ساحة المخيم، تجمع الفتية ثم الفتيات.

- هذه ليست رقصتنا.

قال خليل بقلاوة.

تقدَّم الفتية، تشابكت الأيدي.

تقدَّمت الفتيات، تشابكت الأيادي.

شيءٌ ما في العتمة،

كان يرقص.

الزمن

- صباح الخير.
- صباح الخير، توقَّف من فضلك.
- لا.
- لماذا؟!
- الحقني.

ألهثُ أنا.

- هه، كلانا يبعثرُ الآخر.

العزيز شاهر

يبدو مثل رمح، رشيق، منحنٍ ومتهالك.

شعرٌ أشعث وجفون منتفخة.

جلد وجهه متغضن، عينان تائهتان.

يمشي ببطء، ثم سريعًا، كأنه متجه إلى هدف.

سرعان ما يغير اتجاه خطواته إلى لا شيء.

أكمل ثلاثة وستين عامًا.

- ما زلتُ قويًّا، أمامي مستقبل.

تحدثَ إلى السيدة العجوز، التي ربما تكبره عامًا أو عامين، طالبًا الزواج من ابنتها البكر، نرجس، التي تجاوزت الأربعين بعامين.

ممتلئة الجسد، أقرب إلى السمنة، سمراء، شعر أكرت، وملامح الوجه بارزة.

- لكن لها ابتسامة، دائمًا تبتسم.

يحدّث شاهر الدقس نفسه وهو يقود شاحنة التويوتا القديمة والصغيرة.

وافقت الأم، والأخوة، فيصل وخليفة، وكانا يكبرانها.

بدأ العمل في سن مبكرة.

- لا أدري، إذا كنتُ قد أنهيت الخامس الابتدائي، أو الأول الإعداديّ، يعني، أحد عشر، أو ثلاثة عشر عامًا.

عمل في أكثر من ثلاثين مهنة: ماسحَ أحذية، صبيَّ ميكانيكي، صبيَّ نجّار، صبيَّ حدّاد، حارسَ ورشة، حارسَ مقاثي بطيخ وشمام وكوسا، مساعدَ دهّين، مساعدَ طوبرجي، مساعدَ بنّا، بائعَ مثلجات في صالة السينما، تنظيفَ صالات الأفراح والمطاعم ليلًا، مهنا عديدة.

رعاية أبي وأمي، أختين وأخّ.

الكل كان يحبه، لم ينكر نفسه ورغباته الخاصة والعامة، لكنه لم يتمادى. وارى أباه ثم أمه التراب.. قبلة أخيرة ودمعتان، وداع، ولقبٌ حاز عليه، العزيز.

لم يشكُ ولم يتذمر، أكملت أختاه المدرسة الثانوية وتزوجتا، أصبحَ خالًا، وواظب على ودّ لا ينقطع معهما ومع أبناء إخوته. العزيز شاهر.

أخوه الوحيد نادر واصل دراسته، دخل الجامعة وتخرج في كلية الزراعة. عمل مهندسًا زراعيًّا، تزوج وسافر إلى العمل في السعودية.

وظلَّ الود غير منقطع مع نادر وعائلته، يذكرون العزيز، ويشعرون بغبطة ورضا.

مر الزمن، يوم، شهر، سنوات.

غرفة وملحق، مطبخ وحمام قديم، ما بقي من أبيه وأمه. يأوي آخر الليل إلى الغرفة، غالبًا يتناول عشاءه في الخلاء.

تردد كثيرًا قبل أن يطلب إذنًا من أختيه وأخيه.

كان يرغب في بيع الغرفة وملحقاتها. أعطوه الموافقة بكل رضا.

- العزيز يأمر، لا يطلب.

الكل قال ذلك.

باع الغرفة وملحقاتها، واشترى شاحنة تويوتا صغيرة وقديمة.

بكى يوم التسليم، الغرفة وملحقاتها، ذكريات أبيه وأمه وإخوته.

لكنَّ أحلامه، تلك الأحلام الصغيرة، أن يمتلك تلك الشاحنة الصغيرة، يعمل بها عمله الخاص، وقد كان.

عمل في كل شيء يتعلق بالنقل، أثاث جديد، خضار وفواكه، أثاث قديم.

استقرت أعماله على شراء وبيع الأثاث المتهالك، جميع ما خفَّ وزنه من معادن وأثاث.

يقضي ليالِيَ نائمًا في مكان في الخلاء، داخل شاحنته.

وحتى نظافته الشخصية، حمام وملابس، داخل الشاحنة.

لا بد من بيت، بيت يجمعه بأنثى، زوجة.

عثر أخيرًا على بيت، لم يدفع كثيرًا.

كان البيت تابعًا لأكثر من ورشة، يجري نقله من ورشة انتهت عمارتها، إلى ورشة أخرى.

البيت الخشبي والمُصنَّع بالمعدن كان مهلهلًا.

غرفة نوم، صالون ومطبخ وحمّام ودرج، سرير كبير للنوم، أدوات مطبخ، غاز، ثلاثة مقاعد جميلة.

استعان بخبراته في النجارة والحدادة والدهان، وأعاد تهيئته، وقام بتغيير عجلاته المطاطية.

يربطه بشاحنته الصغيرة، ويتنقل من خلاء إلى خلاء.

- جميل بيتك يا نسيبي، شاهر.

قال فيصل، الأخ الأكبر لزوجته نرجس.

ضحك شاهر وبانت أسنانه السوداء.

- تبدو مثل، يعني، الذين يتنقلون كثيرًا، الغجر.

قال خليفة، الأخ الأصغر.

نهرهُ فيصل:

- اخرس، هو حُر.

لكن شاهر أغمض عينيه في رضا.

- قصدَ الغجر، النَّوَر.. هذا جُلّ أحلامي يا نسيب.

حناء، وحفلة عرس بسيطة.

ركبت نرجس إلى جانبه في الشاحنة، ودّعَت إخوتها.

ومضت الشاحنة تجرّ بيتًا خشبيًّا خلفها، قطعَت طرقًا وأودية وسهولًا وجبالًا.

- إلى أين؟

قالت نرجس وهي تبتسم.

- بلاد الله واسعة، نرجس.

قال العزيز شاهر.

المراكبي

صباح طري، نديّ، كان، أو تمنّى ذلك.

فرحٌ مكبوت يسري بطيئًا داخلي، ينتشر، يتسلَّل عميقًا، يجعل دواخلي، شعري، رأسي، أطرافي تتناغم. مايسترو سريّ يقودها. يشرئبُّ عنقي، وجهي، عيناي، شفتاي، أنفي. موسيقى غير منضبطة، ثم منضبطة، تظلّل نفسي.

تبدو التعاسة ورقةً منكمشة، ممزقة في قاع سلة مهملات، إذا ما انفتحت نافذة، وشقت نسمة هواء مسارها، تأخذ تلك الورقة بعيدًا بعيدًا.

فتحت باب الغرفة بهدوء، وقلمي وأوراقي تحت إبطي.

لم تتعثر خطواتي. ظهرهُ يواجه الباب.

جلباب أبيض واسع، لفة صفراء تغطي رأسه وعنقه الأسمر.

يتجه بكلية جسده إلى النافذة الزجاجية.

- صباح الخير، سعيد.

لم يردّ. كنتُ أواجهه تمامًا.. عينان زائغتان تراقبان أفقًا بعيدًا، تشيان بحركةٍ دوّارة.

اقتربتُ أكثر.

وقف سعيد، مشى ببطء تجاه النافذة.

لم يكترث لوجودي.

انشقت يداه، ذراعاه الأسمران من جلبابه.

رفع اليمنى، يحركها شمالًا، يمينًا.

لم يبتسم.

تراجع خطىً إلى الخلف، ثم تقدمَ.

- افرد القلوع، افرد القلوع يا ريّس.

بدا صوته متحشرجًا في البداية، ثم عاد صفاؤه وعمقه. قادمًا من بئر.

- القلوع، القلوع.

أشار إليّ أن أبتعد قليلًا.

ابتعدتُ قليلًا.

- هيلا، هيلا، ياه. هيلا هوب.

القلوع، القلوع يا ريّس.

حماسة سرية لمست عروقي، أعصابي، عضلات جسدي الصغير.

وقع القلم، تناثرت أوراقي في الغرفة.

اتجهتُ بكليتي مشدودًا، شبه مسحور، إلى النافذة.

- فرع رشيد، رشيد، يا ريّس.

الأرض تميد تحت قدمي. المركب تمضي ببطء في النهر الهادئ.

من جوفي خرجت صرخة:

- نروح فرع دمياط يا..

لم يدعني أكمل:

- اسكت. رشيد، رشيد يا ريّس.

الحمّى اجتاحت دماغي. رشيد، رشيد، ولو أن دمياط أكثر قربًا.

المركب يتمايل ويأخذ اتجاهه بيسر.

ابتسامة كبيرة علت وجه سعيد.

ربّتَ على كتفي.

رحنا نتمايل مع حركة المركب.

الدكتور عبد السلام فايز، رئيس القسم، وأستاذ الطب النفسي في المستشفى، يخصُّني بشيء من الرعاية وقليل من الاهتمام.

ابتدأتُ بالتدريب في القسم والعيادة لمدة شهرين، ثم أربعة أشهر، وسمح لي في النهاية بالعمل دون أجر إلى أن يجيء موعد رحيلي من المدينة.

- لا أهل لك؟!

يقول د. عبد السلام مازحًا.

- معقول، نعم، لي أهل.

- لماذا لا تعود؟

أجيبه بهدوء:

- ظروف، موانع، أستاذي.

- آه، فهمت.

ثم يتابع:

- عمّان قريبة من بلدك، لك أقارب هناك، إذن لماذا لا..

أقاطعه بأدب:

- لا أستطيع، موانع، موانع.

يربّت على رأسي:

- ملعون أبو..

يتوقف ثم يتابع بحنق:

- الاحتلال، السياسة، الـ..

أبتسِمُ، محاولًا إشعاره بالاطمئنان، وبأني في وضع جيد.

طبعًا هو غير مقتنع، وقد قدّم لي أكثر من مرة مضادًا للاكتئاب.

يراقب اكتئابي، ثم فرحي المهووس:

- لولا..

ويضحك ثم يتابع بجنون:

- كنتُ اعتبرتك تعاني من ثنائية القطب.

حزنٌ ظليل، ثم انبثاقة بحث عن فرح.

- خذ إجازة. لك في إجازة، ثلاثة أيام، هه، جميل؟

قال الأستاذ عبد السلام.

- شكرًا.

كنتُ كالمذهول.

- ماذا ستفعل؟ أخبرني.

معظم الزملاء والأصدقاء، إمّا غادروا إلى أوطانهم، بلادهم، وإمّا إلى مصيف، والبعض إلى الريف. الكل تسرّب.

- كنتُ سأذهبُ إلى بار. أشربُ شيئًا، ثم..

- لمَ لا؟!

قاطعني.

- انقطعت نقودي.

قلتُ متلعثمًا.

- هه، ماذا ستفعل إذن؟!

- أمشي، أمشي، ثم أمشي.

أخبرتُ الدكتور عبد السلام عن تلك الرحلة.

مركب النيل، تهنا، وعانيتُ كثيرًا.. طلوع وهبوط، هبوط وطلوع.

إلى أين؟!

شكوتُ للدكتور عبد السلام.

رمتني المركب أخيرًا، أرض صغيرة، منعزلة.

أرى البشر، كثيرا من البشر.

أُكلّمهم، يتحدثون إلي.

كأن بيننا حاجزًا زجاجيًّا.

توقعتُ أن يتجه المركب شرقًا، شرقًا من رشيد.

- تقصد؟؟
- أقصد يافا..
- ثم ماذا؟

عاد إلى ذهوله.

- تقصد المراكبي؟!
- نعم، سعيد المراكبي.

عاد إلى ذهوله، إلى ذهوله.

- وأنت..

أنت..

أنت..

صمتٌ.

الولد داوود

جارة، بعيدة قليلًا.

تكبره بأربعة أعوام.

وجهٌ أحمر نضر، شعرٌ أسود طويل، ملابس فقيرة مزركشة.

داوود الصغير يعشقها.

يرقبها عن قرب.

لا تلتفت.

وحين يفاجئها، تربّتُ على خده وشعره.

صغير.

- أنت حبيبي يا داوود.

إلى أن جاء الباص، العاشرة صباحًا، زفة وحقائب ونساء تغنّي.

«أجا الباص من ريحا (ريحا).. زمّر وأخذ سميحة»

أخذوا سميحة، مخيم آخر.

بكى كثيرًا وانعزل.

يقف عند موقف الباصات، ساحة المخيم.

ينتظر، لا يكل.

أخذوه للطبيب:

- مرضٌ نفسيّ.

أخذوه للسيدة المبروكة:

- هذا من الله، هو مبروك.

ينتظر عند موقف الباصات، معه حبة من فاكهة الموسم.

ينتظر، سميحة.

حفلة شِـــواء

صرخ موسى: يابا، السخل شكله مات.

فوجئ عباس الذي كان يفتل شاربه الأسود الطويل أثناء تفقد بستانه الكبير، أشجاره مزروعاته ونباتاته، محاولًا تسليك المياه لتصل إلى كل شجرة، نبتة، عبر ثقب في ماسورة المياه التي تمر من بستانه إلى عين المياه للمخيم. ثقب، يقوم بفتحه وإغلاقه في الخفاء.

- موسى، الحقني بالسكين الكبير.

لحقه موسى وهو يحمل السكين.

- يبدو أنه مات.
- اخرس، الروح فيه، جسده ساخن، بسم الله.

وقام عباس بجز رقبة السخل حتى انبثقت الدماء ببطء.

- موسى، اسلخه ودع أمك تتبله وعلى الفرن.
- يابا.. بس السخل شكله مات!
- اخرس، أنت لا تعرف شيئًا، افعل ما أقول.

ثم تابع: الليلة في عزومة عشاء.

انطلق موسى وهو يحمل على كتفه السخل المذبوح إلى سقيفتهم. الفرن كان مشتعلًا منذ الفجر، سكان المخيم يأتون بالعجين أو بعض من صواني للفرن مقابل قروش قليلة.

ساعات قليلة، وصل الخبر لصبحي الحلّاق ورفقي العامل بمطعم الوكالة الذي يعاني من شلل أطفال في قدمه اليسرى، وعبدالحفيظ العامل في توزيع المؤن الشهرية.

في الثامنة مساءً، كانوا جميعًا في قلب بستان عباس. الأشجار الطويلة الباسقة تنتشر على أطراف البستان فلا يرى أحد من المارة ما بداخله.

صاح بصوت أجش:

- أبيض!

شرب كل منهم كأسه.

جاء موسى الفران على عجل وهمس في أذن أبيه عباس: الشرطة ومدير المخفر يابا.

وبسرعة وضع عباس بطانية سوداء على راديو فيليب كبير، وجلس عليه.

وبصوت خافت: مدير المخفر.

ثم بصوت عال: دق العود يا صبي.

عود قديم متهالك، وضعه صبي الحلاق في حضنه وبدأ يدق:

«يا شادي الألحان آه اسمعنا رنات العيدان يا لا للي

يا لا لا آه يا لا للي رنات العيدان

آه اسمعنا يا لا للي يا لا لا لا آه يا لا للي»..

انطلق عبد الحفيظ:

«واطرب من في الحان آه واحسبنا من ضمن الندمان يا لا للي

يا لا لا آه يا لا للي من ضمن الندمان

آه واحسبنا يا لا للي يا لا لا لا آه يا لا للي»..

دخل أبو وليم، مدير المخفر.. قصير وسمين، يكاد الدم يتدفق من وجنتيه، معه شرطيان نحيفان.

- كيفك يا عباس، ما هذا؟

توقف العزف ووجم الجميع.

- أهلًا.. أهلًا أبا وليم، شرفت، شرفتنا، زي ما أنت شايف.

قال عباس مُرحبًا.

- سمعنا أن هناك اجتماعًا.

قال مدير المخفر بصوت أجش.

- سيدي أبو وليم، لا اجتماع ولا شيء آخر، كما ترى، عرَق، وجدي مشوي، وعود وغناء. لا إحنا شيوعيين ولا بعثيين ولا تبع عبد الناصر.

ثم وهو يضحك بسخرية: سيدي أبو وليم، احنا لاجئين، لاجئين بدنا ننبسط. وأهلًا وسهلًا بك، اتفضل معنا.

راقت العزومة لأبي وليم، قال في سره: كلكم كذابون. أعلم، فيكم شيوعي وبعثي، وكلكم تحبون عبد الناصر.

ثم بصوت عالٍ: ولا راديو صوت العرب.

- لا.. لا يوجد راديو.

قال عباس بحصافة.

ثم تابع: تفضل أبو وليم، بتشرفنا، صبحي، صب أحسن كاس لسيدنا أبو وليم.

صرف أبو وليم الشرطيين، وجلس على كرسي صغير وتجرَّع كأس عرق مكسورًا بالماء، دفعة واحدة، وتناول قطعة من لحم الجدي من يد عباس.

- صحيح، خلينا ننبسط.

ثم تابع: كأس أخرى يا صبحي.

تجرع ثلاثة كؤوس من العرق، سكروا جميعًا.

قال أبو وليم بصوت خفيض:

- بس لو فيه راديو، نسمع آخر الأخبار من صوت العرب.

ضحك عباس حتى بانت أسنانه الذهبية وقال:

- أبو وليم، أمان؟

- أمان.

قال أبو وليم.

نهض عباس وأزاح البطانية السوداء عن الراديو، سمعوا أخبارًا جديدة، وانطلقوا يغنون مع عزف لصبحي الحلاق:

«يا شادي الألحان آه أسمعنا رنات العيدان آه يا لا للي.

صوت أبو وليم يكون أعلاهم وأكثرهم حبورًا.

انتهوا من زجاجة العرق كاملة ولم يبقوا شيئًا من الجدي المشوي، وتسرب الجميع خارج البستان.

بقي عباس صاحب الفرن وصبحي الحلاق.

لمّا همّ صبحي الحلاق بالمغادرة كان يتأرجح هو وَعودُه.

قال له عباس بصوت خفيض:

- المهم أن أبا وليم لم ينتبه إلى النباتات الغريبة.

قال صبحي مصدقًا:

- صحيح، نعم، نعم، الحمد لله، لم ينتبه.

ولما هم بالمغادرة خارج البستان، عاد متأرجحًا هو وعوده:

- عباس، صحيح، ما هي النباتات الغريبة؟ هه..

ضحك عباس، كان يتأرجح:

- غريبة، نباتات غريبة، هه.. هه.

خربوش لقمان

حين أصبحتُ في عزلة، بات لي أصدقاء كُثر: النباتات، الأحجار، الأسوار، الحيوانات والأشجار، حتى الريح باتت صديقتي.

الغرباء وأسئلتهم، حواراتهم، مشاعرهم السريعة، وذكريات شوارع لا تعني شيئًا للغير.

لُقمان، اسمي، الحكمة، ياه! ربما لا أراها ولا يمكن.

ضبعٌ أسمر وعيون زرقاء.

أدور وأدور، أعالي الجبال، الغابات، الوديان.. لكني لا آكل الجيف.

فقط أبحثُ عن حياة، حياة مستمرة، لا أكثر، وأنا أتجاوز الستين عامًا.

- قبر يلمّك!

هذه العبارة، رمتني بها جدتي لأمّي، أول مرة.

ذهبتُ خجلًا لأخبرها عما تفعله أمي. تجعلني أغادر بيتنا الطيني، يأتي عبد الغفار، ممرض في الوِحدة الصحية، إليها.

رأيتُهما يخلعان ملابسهما و.. هه.

المرة الثانية، بعد سنة وأكثر، أخبرتني أمي أن أذهب لأنام عند جدَّتي.

تلكّأتُ، لكني ذهبتُ ليلًا، عدتُ سريعًا إلى بيت أمي.

سليم، ممرض آخر للوحدة الصحية، في البيت. كانا يتناولان طعامًا وهما نصفُ عاريَين. أخبرتُ جدتي، لم تكترث، ضربتني بعَصًا.

- يجعله لا يلمك قبر أبدًا!

صرخَت تُشيعني إلى الخلاء.

كنتُ الوحيد لأبي وأمي.

اضطرّتهُ أمي وجدتي، وبعد ضغوط، أن يسافر كالآخرين إلى بلد عربي مجاور، يرسل نقودًا، وقد كان.

عمل بالمعمار والبناء، وُرش كثيرة متناثرة، كان لا يتقن الحرفة، لكنه تعلّم.

وقعَ عن سقالة، نُقل إلى المستشفى وتوفيّ، دفنوه بعيدًا.

أحضر زملاؤه لأمي تعويضًا ماليًّا.

كبرتُ، كنتُ نحيلًا وطويلًا، لا تؤنس الوجه أي انفعالات، لا فرح، لا حزن، لا غضب، لا قبول ولا اكتراث.

رجوتُ الحاج عبد الفتاح، كانَ نقّاشًا ناجحًا، أن أعمل معه مساعدًا، حتى لو بأجرٍ متدنٍّ أو دون أجر.

تردّدَ ثم وافق. عملتُ نقّاشًا، أشهرًا وربما سنين، ثم وجدتُ نفسي أعمل نقاشًا في القُرى المجاورة، وانتقلتُ إلى المدينة، ثم إلى الأحياء الشعبية.

غادرتُ إلى بلد عربي مجاور إلى غير رجعة، كانت ليبيا ثم رُحّلت.

علاقة هنا أو هناك مع امرأة عابرة.

ينتابني شعورٌ بالذنب، ألجأ إلى الجامع الكبير، أتوضّأ ثم أصلي طيلة الليل. يستغرقني النوم في الجامع، ويحدثُ أن مسؤولًا مهمًا يأتي إلى الجامع. تأخذني أجهزة الأمن، ضرب وتحقيق.

نَقّاش، طَرّيش أجنبي، مُجونٌ بالنهار، وصلاة متعبِّد ليلًا.

- ماذا كنتَ تنوي، يا ابن الكلب!

أشفَقوا عليّ وتركوني أرحل.

غادرتُ البلد إلى العراق، عشتُ في الجنوب، البحر والمدن القريبة، قبل أن أستقر في بغداد.

عملٌ بالنهار، وخمرٌ بالليل ونساء، بيوت دعارة فقيرة. لم أكن أمكث بصحبتهن أكثر من دقائق.

بعد الحرب، غادرتُ إلى بلد عربي مجاور، عمِلت سنين عدة، نلتُ شيئًا من الشهرة، ولاذ بي مساعدون فقراء من البلد، عملوا مساعدين لي.

بقيتُ وحيدًا، صنعتُ هذه العشَّة، يسمونه هنا «خربوش»، بيت من حجارة وطين، وسقف من الزينكو.

بضع دجاجات، بعضُها بيّاض.

أغسلُ ملابسي وأنشر، وأعيش.

أسأل، هل لي من اسمي نصيب، لقمان؟

اللعب مع الدجاج، الجلوس تحت الشجرة وارفة الظلال، عادات لا تبدو غريبة، لكنها تؤنس وحشة، عزلة، أو وحدة حادة أحياها.

عشاء، بعض من المشي، شراب من خمر. أستلقي على فرشتي الأرضية، أتأمل سقف الزينكو.

يلمّني قبر، أو أموت في الخلاء، تلتهمني الحيوانات البرية، الضباع.

يقولون إنها تقرقش العظام، وبهذا، لا يكون لي وجود.

هه، جميل.

دكان ياسر

الصف الأخير من الوحدات السكنية للمخيم القديم.

غرفة (وحدة) منفردة، على منعطف يتلوه انحدار، في قاعه بضع شجيرات كينا وأشواك برية ومقبرة.

امتداد أمامي للغرفة، تعلوه ألواح من الإسبست.

باب، رمل وحصى.

دكانة بها معلبات وسكاكر، مخللات، أجبان وزيتون، وشوالات قليلة من الأرز والسكر والطحين. ميزان قديم وثقالات للميزان وأحجار صغيرة على طاولة خشبية متهالكة.

يخرج ياسر من الباب الجانبي للغرفة، أقدام قليلة، يتكوَّم على كرسيه داخل دكانه.

سمين بلا ملامح، لسان ثقيل، شاحب.

لا يغادر الدكان، ربما إلى الحمام العمومي القريب، أو إلى جزء من المنحدر ليقضي حاجته.

يأكل ويشرب في دكانه، يغادره مساءً، ويجلس على كرسيه مستكينًا أمام دكانه.

قلّة من زبائن، أطفال، سيدات، يشترون أشياء قليلة ويغادرون.

سمين بالنهار، لكنه نحيل بالليل.

فقد ساقه اليسرى وقدمه، لغم أرضي أثناء الهجرة الأولى.

عوضوه بساق خشبية، وقدم (بسطار) بني اللون، ثقيل.

يزن اثنين من الكيلوغرامات، يعيقه في الحركة، لكنه يحفظ توازنه.

يخلعه ليلًا حينما يأوي إلى فراشه الأرضي.

نوم نهاري يقظ، أحلام متوالية.

يقظة ليلية، ما بين حلم وحلم.

لا يتبادل حديثًا مع أحد عدا الأستاذ أكرم، أستاذ التاريخ في مدرسة المخيم، إذا ما رآه بعد قيلولة صباحية أو مسائية.

يناديه، يأتي الأستاذ أكرم مبتسمًا.

يقدم له كوبًا من شاي ساخن، يسترسل في حكايات صغيرة، مقتضبة، أساسها الموت، الكذب، وحياة لا معنى لها.

- اختر زمانًا يا أستاذ، واحكِ لي عنه، بلا تزويق.

حروب، غزوات، جيوش جرارة، أسلحة متغيرة من عصر إلى عصر.

إمبراطور يكذب، وقائد عسكري يكذب، الكاهن الأعلى يكذب.

أمم، ألوان وسحنات مختلفة، دم كثير، موت بلا نهاية، روائح الموات والمرض في كل مكان.

يسكت الأستاذ أكرم.

وفي يوم آخر.

- أستاذ أكرم..

يقف الأستاذ أكرم ويتوقع حديثًا من ياسر.

- أخرِج كتابًا، ملفًا، أوراقًا، اختر زمنًا، عصرًا، بلادًا، مدنًا.

حدثني، حدثني.

يحدثه الأستاذ أكرم عن عصر، زمن، بلاد، إمبراطور، قوم، شعب، حروب.

يصمت ياسر ويذهب في قيلولة صغيرة.

يصحو فجأة:

- أنا أتابع ما تقول، الكذب، الكل يكذب، والدماء تسيل، الموت ورائحته تزكم العصر.

كذب، كذب، قد يبدو جميلًا، زاهيًا وأحيانًا مقدسًا، كذب مقدس.

ومرة أخرى يناديه من بعيد، يشعر أن الأستاذ أكرم يبتعد عن دكانه، يناديه:

- أستاذ، أستاذ أكرم.

ليلًا بعد أن أخلع بسطاري الثقيل وساقي، أبدو خفيفًا، أخلد إلى النوم، لكن النوم ثقيل، خوف ينتابني، أصحو وأغفو طيلة الليل، صحو ويقظة.

هذه عيشة، أستاذ!

لم يغب الزمن طويلًا.

فجأة، الجسد يضمحل، قليلًا قليلًا.

ويبتدأ في فقدان القدرة على الكلام تدريجيًّا، لا نوم، يقظة.

الساق اليمنى تفقد القدرة على الحركة، تخرج رائحة عفن منها، تحتاج إلى بتر.

الجسد يتآكل، ثم يذوي.

الدكانة ومحتوياتها، تذوي أيضًا، والغرفة تذوي.

كأنها في جزر.

شبح بلا ساقين، لا يتكلم.

شبح على منعطف يودي إلى وادي، أشجار كينا وأشواك كثيرة.

ومقبرة.

قصة حب

- من أنت؟

كتبَت.

- لا أدري.

كتبَ.

مر يومان.

- من أنت؟

كتبَت.

- أنتِ طفلة.

كتب هو.

- هه، وأنت.

كتبت هي.

- مراهق، البارحة غادرت الطفولة، كنتُ ألهو وحيدًا.

كتب هوَ.

- هاه.. لن تعود؟!

كتبت هيَ.

- تعالي أنتِ، اصعدي قليلًا.

كتب هوَ.

- تغريني، سأصعد.

كتبت هيَ.

- أراك غدًا.

كتب هو.

- بسرعة؟!

كتبَت.

- لا وقت، لا وقت.

- النيروز، مقهى النيروز، صباحًا.

كتب هوَ.

- أعرفه، غدًا نلتقي.

التقينا.. كلانا يقترب من السبعين عامًا، نمشي، خطىً بطيئة. رمقٌ من حياة، يتبعثر، عيون تشي، أيدٍ مرتجفة، دافئة.

كتاتونيك شيزو

جالسًا على المقعد الطويل، وحيدًا.

رصيف أزرق، أناس قليلون، يمرون، لا يلتفتون.

وصل، أبعد من خط النهاية.

قهر، إحباط.

لفتَ جمودُه بعضًا من الناس..

ابتسامة متجمدة، جبين كئيب، يداه، جذعه، ساقاه، لا تشي بشيء من نهوض أو نشاط.

سأل الطبيبُ النفسي، أين الأهل؟

- فقط جيران.
- هذه حالة شيزو.
- كيف؟ لم يكن يعاني من شيء!
- ربما الضغوط، هي التي أظهرت الحالة.
- هه، لا أول لها ولا آخر.

كلب

- انحنيتُ، طويلًا، طويلًا أيها الكلب.
- أنت تستقيم، طويلًا، طويلًا..

هل نتبادل؟

- لا، لن أنحني، حواسي تدفعني، أتفرج.
- أحاول أن أستقيم، لا أحسدك، لي نفس الحواس.

أود أن أتفرّج، طريقة مختلفة.

مترجم

يتكلم العربية، يعرف الإنجليزية.

لا يعرف لغات أخرى،

لا يعرف العزف.

لكنه، حينما يتحلق حوله أصدقاؤه، ندماؤه، يشربون كأسًا أو أكثر من عرق.

يترجم، يترجم أغانيَ من لغات مختلفة: روسي، ألماني، فرنسي، صربي، يوناني، إسباني، إيطالي.

ويترجم مقطوعات كلاسيكية قصيرة.

يبكون، يحزنون، يفرحون، يرقصون، أو تشتعل نشوى، شبق.

على أحد الأرصفة، وجدوا قطعًا من عظام الجمجمة، دماء وبقايا دماغه.

طرابلس الغرب، القاهرة، تونس، حلب، الموصل، وعدن.

على أحد الأرصفة.

مقهى توفيق الدقن

أسماء مقاهي متعددة، مطربون ومطربات مشهورون، أو حتى أسماء روايات مشهورة.

حليم، العندليب، فريد الأطرش، كوكب الشرق، أو اسم رواية محفوظية؛ زقاق المدق، بين القصرين، السكريّة، قصر الشوق..

لكن، لماذا، توفيق الدقن؟!

ممثل مشهور بأدوار الشر، خفة دم متناهية.

دلفتُ إليه، رواد قليلون، كبار السن، شاب وصبية آخر الصالة.

كنتُ قادمًا من مراجعة الطبيب، ضغط مرتفع، وتضخم بسيط في عضلة القلب، زرقني بحقنة مدرة للبول، ودواء.

ذهبتُ مباشرة للحمام، تبولت، وعدت أجلس وسط الصالة.

جاء رجلٌ عجوز، طويل، نحيل، أشيب الشعر وجاحظ العينين.

- تأمُر.

قال.

- قهوة، سكر خفيف.

عاد بعد قليل، يحمل صينية صغيرة ودلّةً وفنجانًا أبيض، صبَّ القهوة في فنجاني، ارتشفتُ شيئًا منه.

- تأمُر.

قال النادل العجوز.

- أسأل، أود أن أسأل.

قلتُ بأدبٍ جم.

- تفضل.

نطقها بصعوبةٍ بالغة.

- لماذا، يعني، أقصد توفيق الدقن..

تراجعَ النادل العجوز خطوتين دون أن يبتسم:

- أنا، توفيق الدقن، يا أستاذ.

«قدرٌ أحمقُ الخُطى»..

سمعتهُ يتمتم لنفسه.

نعنع

أنثى،
طويلة قليلًا، ممتلئة قليلًا.
وجه طويل، حاد الملامح، عيون مقتحمة.
يدعونها «نعنع».
- صباحُ الخير
قالت..

فهرس المحتويات

الـربيـع الذي يلي.....5

غيمة.....7

ذات ربيع.....10

ربيع- خريف مشمس.....12

شوبان، حديث موسيقى.....16

ينبوع.....19

صيف على الأبواب.....21

سماء زرقاء، صيف.....23

ربيع بعيد.....25

الشتاء غواية.....27

غواية النهاية.....29

امرأة ترمم نفسها.....32

خوخ كعكي فرنسي.....35

صقيع.....37

مودة كسرت سطح الصقيع.....40

هذيان.....42

عاصفة ثلجية، غواية.....45
غرفة على البحر.....47

أمينــة.....49
مقهى وحلوى.....51
خـــارج المكان.....54
حِنّ.....57
إســـــار أُمّ.....62
نهــايــة.....64

بيت رحيم.....67
خريـــف.....69
مـــأوى.....71
خيــمة.....74
انتظار.....75
رحيم - ذيب.....76
بيت آخر.....78
جواز سفر.....79
المزرعة: استدراج.. المهندس: خالد حنا نجار.....81
المزرعة.. مرة ثانية.....87
نهاية.....90

مأوى أخير..... 93

ملذات شفيق غانم الشهير بـ«شقروق»..... 97
شبح المحطة..... 101
مساء دافئ ليلة باردة..... 103
شفيق الأعرج..... 105
ملهى Red Cave..... 109
عملٌ حـــر..... 112
حصكور..... 114
ملاذ غير آمن..... 116
ملذّات ومآلات..... 118

صحبة وأنا معهم أهل الهوى يا ليل..... 121
أرق..... 123
كوّة 1..... 124
كوّة 2..... 125
مقهى..... 127
ســـرك في بير..... 129
علاج..... 133
متعلقات سفر..... 140
نافذة صغيرة..... 145

ورقة في مهب الريح.. خريف..... 147
خيمة أبو العلاء المعري..... 151
مطار على الطريق السريع..... 155

عالم قديم..... 159
ظل الوردة..... 161
وردة الصباح..... 163
ظِـلّ..... 165
وردة العالم..... 166
عالم قديم.. فراق..... 169
تجوال..... 171
عشاء أخيــر..... 174
عريشة دنون..... 179
ياسين..... 183
الخال سعادة..... 186
المسافر..... 190
فضل..... 193
شبح..... 196

فـؤاد مطـــر..... 201
Pencil, Pen قلم رصاص، قلم حبر..... 203

غُربـــــة..... 206
فَرح..... 208
رحلـــة..... 210
فرح آخر..... 213
مقـــهى قديـــم..... 214

كائنات الصدفة..... 217
حقبة الحيرة..... 220
ظـــلال الأشـــياء..... 222
لعبـــة الحـــياة..... 225
رشيد خليل رشيد..... 228
حقبـة المطـــر..... 231
حقبـــة الخوف..... 234
حقبة الزهور البرية..... 237

Vagabond..... 240
أبو حسن..... 242
أبو عازر..... 248
اشتايم في العتمة..... 250
الزمن..... 252
العزيز شاهر..... 253

المراكبي..... 258
الولد داوود..... 264
حفلة شِــواء..... 266
خربوش لقمان..... 271
دكان ياسر..... 275
قصة حب..... 279
كتاتونيك شيزو..... 281
كلب..... 282
مترجم..... 283
مقهى توفيق الدقن..... 284
نعنع..... 286